الفصل السابع

الحرية الفكرية والعلمية: الحدود والضوابط

- قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ .
- أمر رسول الله ﷺ أبا ذر الغفاري بخصال ، فعن أبي ذر قال : « أمرني خليلي ﷺ بسبع، أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أَدْبَرَتْ، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن من كنز تحت العرش».
- قال الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود: «يجب على كل إنسان أن يقول ما في ضميره بصراحة وألا يخشى في الحق لومة لائم ، يجب أن يصرح كل فرد بما في نفسه ويقول ما يعتقد فيه صحته، فهذا أمر واجب على كل إنسان لأن مجال البحث والتدقيق يوصل إلى نتائج حسنة، فعلى الإنسان الاجتهاد وبالله التوفيق، ومن واجب الإنسان النصح والإرشاد وألا يتقيد أحد بأن هذا مخالف أو ذاك موافق، بل يجب أن يقول بجلاء ما يرتئيه من خير وفلاح ، فإن لكل مجتهد نصيب».
- يقول الباحث الأمريكي نعوم تشومسكي: «صحيح أن الرقابة على وسائل الإعلام لا تكاد توجد في الولايات المتحدة الأمريكية، ومع ذلك فإن صناعة التحكم في الأفكار مزدهرة جداً، بل إنها صناعة لا غنى عنها في مجتمع يعتمد على مبدأ القرار للنخبة والإقرار للعامة».

obeikandl.com

الحرية الفكرية والعلمية: الحدود والضوابط

تعد حرية الرأي والتعبير من المبادئ الحقوقية التي احتفت بها الصكوك الدولية الخاصة بحقوق الإنسان وخصوصاً الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وما جاء في نصوص بعض مواده مثل المادتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، فالمادة التاسعة عشرة تنص على أن : «لكل شخص حقوق التمتع بحرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين بأي وسيلة دونما اعتبار للحدود»، كل هذا في جانبه النظري محمود ومرغوب فيه، ولكن لماذا العمل بمفردات هذه المادة يأتي على النقيض مما فيها؟ هذا ما سنطرحه في هذا الفصل من الموسوعة ببيان حقيقة حرية الرأي والتعبير في الإسلام في فروع العلوم والمعارف المختلفة وفي الجوانب الحقوقية للإنسان، والتأكيد على أن حرية الرأي مبدأ إسلامي وإنساني معتمد في تعاليم الإسلام منذ القدم استند إليه الفقهاء والعلماء والباحثون في الطب والكيمياء والفلك والرياضيات والفيزياء وفي الشؤون الإدارية والسياسية عموماً، وفي جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خصوصاً لنبين أن الإسلام وضع حدوداً وضوابط للحرية الفكرية والعلمية حتى لا تنهك حقوق الإنسان إما بكبت الفكر والعقل أو بإطلاق العنان للخيال والقول إلى الحد الذي تهدر معه حقوق الإنسان. وفي نهاية المبحث سوف نقدم عرضاً عاماً عن رعاية العلم وحرية الرأي والتعبير في المملكة العربية السعودية والحركة العلمية والتعليمية والإعلامية باعتبار أن ذلك سمة إسلامية حقوقية تنتهجها المملكة العربية السعودية التزاماً بشريعة الإسلام، وقد يتساءل البعض كيف يمكن أن تكون حرية الرأي التي هي حق من حقوق الإنسان ناقض من نواقض تلك الحقوق، هذا الأمر حددته الشريعة الإسلامية في إطار قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]، وقوله ﷺ : **«إن العبد ليتكلم**

بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»، وفي رواية: « **إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وأن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»**[٢] ، وحرية الرأي في الإسلام فضلاً عن أنها قيمة يترتب عليها الثواب أو العقاب في الآخرة، هي مما يترتب عليها عقاب في الدنيا أيضاً من حد أو تعزير، فحرية الرأي في الإسلام لها ضوابطها وحدودها والأمر ليس على إطلاقه، فإن كانت حرية الرأي والحرية الفكرية والعلمية لا تقيدها آداب مرعية وأحكام شرعية فهي بذا تصبح ناقضاً من نواقض مبادئ الحقوق الإنسانية. وقد يتوهم البعض عن علاقة حقوق الإنسان بالحديث عن التقدم العلمي والتقني الذي هو جزء من الحرية العلمية، هذا الموضوع في هذه الموسوعة يرتكز على الإعلان الحقوقي الخاص بإستخدام التقدم العلمي والتكنولوجي لصالح السلم وخير البشرية الذي أصدرته الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بالقرار رقم ٣٣٠٤ د ـ ٣٠ في ١٠/١١/١٩٧٥م، ومما نتحدث عنه في هذا الفصل يوضح الموروث الإسلامي الإنساني في ذلك باعتبار أن ذلك أساس كتابة هذه الموسوعة عن حقوق الإنسان في الإسلام وسماتها في المملكة العربية السعودية بمقتضى التزام المملكة بأحكام الإسلام مع تمشيها بمنهج المعاصرة والتقدم بما ليس فيه إخلال بالشريعة الإسلامية. ويلحظ أن الإعلان الخاص باستخدام التقدم العلمي والتكنولوجي لصالح السلم وخير البشرية يتسق فيه موضوع هذا الفصل مع مضامين المواد التسعة لذلك الإعلان.

١ـ حرية الرأي : التحرر والتسلط

لئن كان الإعلان الخاص باستخدام التقدم العلمي والتكنولوجي لصالح السلم وخير البشرية الذي أصدرته هيئة الأمم المتحدة بقرارها رقم ٣٣٠٤ د ـ ٣٠ في

١٠/١١/ ١٩٧٥م هو حق لتلك الأهداف المتضمنة في ديباجته ونصوص مواده فإن المسلمين في حضارتهم منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرناً عملوا بتلك الأهداف السامية مما سنعرضه في هذا المبحث، إن المسلمين لم يتخذوا العلم وسيلة للتدمير والدمار والشقاء باسم الإنسانية. إن المسلمين لم يوظفوا العلم لاختراع أسلحة الحروب وأجهزة التجسس، إن المسلمين كانوا يلتزمون بتعاليم الإسلام في طلب العلم النافع المفيد لخير البشرية وبما لا يتناقض مع المبادئ الحقوقية للإنسان، يقول أحد المفكرين : « يجب أن لا يغرب عن البال أن المدنية الغربية الحديثة خابت في إرضاء النفوس وأخفقت في إيجاد السعادة البشرية فهبطت بالناس في هاوية الشقاء والارتباك لأن جهود العلم الحديث موجهة إلى التدمير والإفناء ، فهو بعيد والحالة هذه من أن يتصف بالكمال أو أن يكون واسطة لخدمة الإنسانية كما كان في عهد الإسلام»[٣]. والإسلام لا يحجر على الإنسان حقه في الفكر وحرية التعبير والرأي، ولكن يضع لذلك ضوابط وحدود لأن للإنسان كرامة وسمعة وعرض فلا تهدر باسم حرية الرأي والتعبير فتكون تلك الحرية المطلقة ناقضاً من نواقض حقوق الإنسان كما سنوضحه في هذا المبحث.

فما من شك في أن حرية الرأي حق للإنسان بل واجب عليه في بعض الأحيان، فحرية النفس وتحريرها من الرق متلازم مع حرية الفكر وتحريرها من الانغلاق والتبعية العمياء، وربما كانت عبودية الأجسام على خطر شأنها وعظم قدرها وإن كانت سجناً مرذولاً فهي ليست شيئاً مذكوراً إلى جانب عبودية الرأي والحظر عليه، وإقامة الأسوار والأشواك في وجه صاحبه، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٤] ، وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : «**أمرني خليلي ﷺ بسبع، أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو**

دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبَرَتْ، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن من كنز تحت العرش»[٥] والإنسان ذو الهمة الأبية والنفس العالية والطموح البعيد، قد يقبل أن يطرح به في المنفى وأن يزج به في الدرك الأسفل من الكهوف والمغارات، وأن يرمى به في المفازات والأدغال مع الوحوش والهوام، ولكن لا يقبل أن يحال بينه وبين الرأي الحق الصريح، والمنزع الديني والإيماني الصحيح التي يذعن له قلبه، ويطمئن إليه وجدانه، ولو أكره على خلاف ما يرى أو حُمِّل على ما يتنافى مع هواجس نفسه، وهواتف حسه، لم يسعه إلا أن يدعو بدعوة يوسف عليه السلام حينما اضطربت به المسالك، وضاقت عليه المآزق، فيؤثر السجن وأن يكون سجيناً ببدنه من أن يكون سجين فكره ورأيه. وكان رأي نبي الله يوسف عليه السلام وهو أحد أنبياء بني إسرائيل بما أرشده الله إليه وعصمه من السوء أن اختار السجن سجن البدن فوجده أحلى المُرَّيْن، من سجن الرأي والعقيدة والإيمان، ومما كانت تدعوه إليه كما يقال في أيامنا هذه سيدة البلاد الأولى امرأة العزيز، تلك المرأة التي هي غاية في الجمال والمال والرياسة، وهو عليه السلام في غاية مقامات الكمال والجمال وعنفوان الشباب، ففي الحديث الصحيح من قصة الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة فقال : **«فإذا هو قد أعطي شطر الحسن»**[٦]، أي حسن أهل الدنيا وفي رواية ثلث وفي رواية ثلثين. مع هذا الكمال والجمال تمسك يوسف عليه السلام بالحق ولم يطلق لنفسه العنان ويميل إلى هوى الشيطان ورأيه حشاه ﷺ، فلماذا لا يفعل من يدَّعون تمسكهم باليهودية والنصرانية وهذا فعل أحد أنبيائهم؟، وتراثهم الديني والتاريخي والأدبي يشهد بذلك فللقارئ أن يراجع مثلاً إلى رواية الروائي الألماني المشهور توماس مان **Thomas Mann** بعنوان: يوسف وإخوته **Joseph and his Brethren** ، وهي رباعية، جزء عن حكاية يعقوب،

وجزء عن يوسف الصغير، وجزء عن يوسف في مصر وهو مملوك، وجزء عن يوسف في مصر وهو في مراتب الملوك[٧] ، كما يمكن قراءة مسرحية الكاتب المسرحي الإنجليزي تشالرز جيرميه ويلز والمسرحية بعنوان: **Joseph and his Brethren** (يوسف وإخوته) واسم الكاتب الحقيقي **H.L. Howard** هربرت لويز هاورد، وقصة يوسف عليه السلام من أبرز القضايا الموجودة في العهد القديم عند اليهود والنصارى، ولكنها تركت وما فيها من الحق مثلها مثل الكثير من أحكام الله وشرعه، ويدعي أصحاب الشرائع الحديثة أنها كفلت للإنسان حرية الفكر ليعتقد ما يشاء، ويجاهر بما يعتقد قولاً وكتابة في دائرة حدود القانون[٨]، ولكن الإسلام تجاوز ما جاءت به هذه الشرائع الحديثة، فالإسلام يجعل حرية الفكر والتعبير واجباً على كل مفكر، ولم يجعلها حقاً له فحسب، فقد جعل الفكر والنظر أساس التدين، ونهى عن التقليد واتباع الهوى، والفكر وحرية الدين هو منهج الأنبياء والرسل كما ذكرنا مما كان في قصة نبي الله يوسف عليه السلام وكذا بقية الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، والإسلام عظم أمر العقل وجعله هو المخاطب بفهم النقل، فامتاز الإسلام على سائر الشرائع بأنه شريعة الحجة والبرهان التي تنعى على متبعي الأوهام والظنون أن يهملوا عقولهم، وتصفهم بما جاء في الكتاب الكريم في قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾[٩]، وقد أسقطهم من عداد الإنسان حين تجردوا من مزاياه وتركوا ما اختصهم به الله، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[١٠]، والقرآن الكريم ازدرى هذا النوع من الناس، وسلكهم في جماعة الجاحدين، فقال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[١١]، ثم احتج على صحة العقائد بآيات كثيرة في القرآن تبين أصحاب العقول المظلمة والقلوب المغلقة.

إن المواءمة بين الفكر والدين في الشريعة الإسلامية مضرب الأمثال أمام الأدعياء والمنادين بحقوق الإنسان في مسألة حرية الرأي والذين يتهمون الإسلام

بحجر الفكر والعلم وحرية التعبير، وهذا ما سنوضحه لاحقاً. لا يناقض الإسلام الفطرة الإنسانية ولا يتنافى مع المبادئ الحقوقية للإنسان في هذا الجانب، ولكن نواقض حقوق الإنسان هي من عند أولئك الذين قام تراثهم على الحجر الفكري من علماء الدين، حتى ثارت ثورة المغلولين فخرجوا عن حدود التعبير عن الرأي إلى ما لا يرضاه عقل أو عرف أو شرع، لقد حرر الإسلام الحرية الفكرية عندما كان الآخرون غارقون في ظلمات الكهانة وتسلط رجال الدين على عقول الناس الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[١٢]، تلك التبعية الفكرية التي كان لها قداستها عند الأحبار والرهبان ويقولون إن : «التقاليد عند النصارى ما اتصل بنا من العقائد أو أمور العبادة خلفاً عن سلف مما أوصى الله به إلى كنيسته دون أن يسطَّر في الكتاب المقدس»[١٣]، يقول الأستاذ مجدي دوس رئيس جمعية الشباب الكاثوليكي بمصر إن: «الإنجيل في عرف الكنائس التقليدية أعني الأرثوذوكسية والكاثوليكية ليس هو مصدر الإيمان الوحيد، بل إن هناك تعاليم كثيرة لم تُدَوَّنْ بالإنجيل، ولكن الخلف تلقوها عن السلف، فحافظوا عليها واحترموها ، فتعتبر بذلك من التقاليد الثابتة المرعية التي لا تقل عن الكتاب نفسه قوة وثباتاً، وعقيدة انتقال العذراء مريم إلى السماء بجسدها ثابتة بالتقليد منذ العصر الأول»[١٤].

هذه التقاليد التي قدسها أهل الأديان السابقة على الإسلام إنما هي عقبة كَداء في سبيل المواءمة بين حرية الفكر والدين: « وإذا كان البروتستانت قد ثاروا على التقاليد بقيادة مارتن لوثر في القرن السادس عشر فإن الفضل في هذه الثورة التقدمية ولا شك للإسلام ، الذي سرى بروحه وتعاليمه ومدنيته إلى الغرب الأوروبي من خلال عدة ثغور، من الشام في العهد الصليبي ١٠٩٨ ــ ١٣٠٠م، ومن صقلية في عهد الأغلبيين ٨٣١ ــ١٠٩١، والنورمنديين ومن أسبانيا في عهدها الإسلامي. إذاً المسيحيون يعملون على تقديم الإيمان الأعمى على التفكير البصير عملاً منهم بمبدأ

القديس أتسليم الذي قال : «يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت»[١٥]، أما الإسلام فيقدم النظر والبحث على الإيمان، ويطلب من أتباعه التفكر والتبصر والتدبر ، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[١٦]، وقال تعالى : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[١٧]، وقال جل شأنه : ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ [١٨]، وقال جل وعلا : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[١٩]، ثم يحث الإسلام أتباعه بعد ذلك بقوله تعالى : ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، لا كما آمن آبائكم وأسلافكم ، ولكن كما تراءى لكم في ضوء النظر والبحث والتفكير والتبصر .. الخ.

لقد حرر الإسلام الإنسان باختيارحرية الرأي والعقيدة من سلطة التقاليد وسلطان الباطل الديني الزائف، حرره من سلطة رجال الدين، فليس في الإسلام «رجال دين»، لهم ما لرجال الدين في المسيحية مثلاً من سلطة روحية في أية واحدة من طراز آية إنجيل متى التي تقول : «أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات»[٢٠]، يقول المفكر الإنجليزي اللغوي الجيولوجي هـ . ليون **H. Lyon** : «من روائع الإسلام أنه يقوم على العقل وأنه لا يطالب أتباعه بإلغاء هذه الملكة الربانية الحيوية، فهو على النقيض من الأديان الأخرى تصرّ على أتباعها أن يتقبلوا مبادئ معينة دون تفكير ولا تساؤل حرّ، وإنما تفرض هذه المبادئ فرضاً بسلطان الكنيسة. أما الإسلام فإنه يعشق البحث والاستفسار ويدعو أتباعه إلى الدراسة والتنقيب والنظر قبل الإيمان، إن الإسلام يؤيد الحكمة القائلة : «برهن على صحة كل شيء ثم تمسّك بالخير». وليس هذا غريباً، إذ أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها. فالإسلام دين العقل والمنطق ، لذلك نجد أن أول كلمة نزلت على النبي محمد ﷺ كلمة اقرأ، كما نجد أن شعار الإسلام هو الدعوة إلى النظر والتفكر قبل الإيمان، فالإسلام هو الحق وسلاحه العلم، وعدوه اللدود هو الجهل»[٢١].

إن الرسول محمد ﷺ وهو النبي الرؤوف الرحيم لم يجعل الله له أية سلطة على أي إنسان، وهو لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره نفعاً ولا ضراً ، وما هو إلا إنسان مبلغ للرسالة مع ما له من كمالات مقام النبوة والرسالة، قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[٢٢]، ومهمته التذكير والدعوة والإرشاد والتبشير والإنذار، لا السيطرة وملك زمام الدين بوجه تسلطي، إنما هو يهدي إلى الحق هداية تبليغ وإرشاد، ولكنه لا يملك الهداية الفعلية المتعلقة بالقلوب، فالقلوب بيد الرحمن يقلبها كيفما شاء، قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾[٢٣]، وقال تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[٢٤]، وحينما طلب كفار قريش إليه ما هو فوق طاقة البشر أجابهم في تواضع الإنسان العظيم بإنسانيته كما في قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾[٢٥]، وليس في الإسلام منذ خمسة عشر قرناً أي سلطة للعلماء كما هو موجود عند قساوسة الكنائس بما يسمى «قرارات الحرمان» التي لها ضحاياها قديماً وحديثاً مع الأسف الشديد، إذاً فلا بد من النظر والبحث كما أمر بها الإسلام، ولا بأس على الباحث من الشك (الشك في كل شيء دون الله وألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، ودون أنبياءه وصدق رسالتهم) ، فالشك قد يكون مفيداً كما أشاد به الإمام الغزالي يرحمه الله قبل أن يقول به ديكارت بعدة قرون، واعتبره سبيلاً إلى اليقين، ليس فيه حجر على العقول كما كان في اليهودية والنصرانية من ذي قبل والحكمة ضالة المؤمن[٢٦].

وأن الحجر على الفكر والتفكر وإن بدى ظاهراً في الأزمنة الحديثة أنه تلاشى وأعطى الإنسان حقه في التعبير وحرية الرأي، إلا أن الممارسات الكنسية السابقة لازالت موجودة من قبل المسؤولين عن الإعلام ووسائل الاتصال ومصادر المعلومات حتى في الوقت الحاضر كما تحدث به نعوم تشومسكي فقال: «أما فيما يتعلق بوسائل الإعلام، فهي مؤسسات رأسمالية رئيسية ولذلك ليس من المفاجئ أنها نادراً ما تتحدى العقيدة الرسمية، وهي ملتزمة بضمان عدم تخطي تحاليل

الأحداث المعاصرة لقيود صارمة. لكن العالم التجاري لا يمكنه الركون إلى السيرورة الطبيعية للسيطرة الأيدولوجية الناتجة عن القاعدة الضيقة للملكية، ولذلك فقد عمد إلى تطوير برامج مفصلة ليسيطر مباشرة على مضامين وسائل الإعلام. إن رأي الشعب مسموع في النظام الديمقراطي، ولذلك كان من الضروري التأكد من تماشي رأيه مع احتياجات ومصالح من يملك القوى الفاعلة، وإلا فمن الممكن أن تحدث تطورات غير مرغوبة، ومن هنا جرى التشديد على ما يسمى «هندسة القبول» وهو اصطلاح قدمه إدوارد برنايز أحد المتحدثين باسم صناعة العلاقات العامة وهو حائز على عدة أوسمة أكاديمية لمآثره في علم النفس التطبيقي. ويصف برنايز هذا الأسلوب بأنه «جوهر السيرورة الديمقراطية، إنه حرية الإقناع والاقتراح»[٢٧]، ولا ينفي تشومسكي بالكلية عدم وجود حرية الرأي في الغرب، بل يوضح أنها متاحة تحت ظروف وأسباب معينة فيقول :«هذه الحرية بالطبع، متوفرة لمن يملك القدرة على ممارستها. وليس منافياً للواقع اعتبار الحرية نظير سلعة في ظل الديمقراطية الرأسمالية. وهي ليست، من حيث المبدأ، قليلة العرض، لكن يستطيع المرء أن يملك منها قدر ما يشتري. لذلك ليس من المستغرب أن يُصنف أصحاب الامتيازات غالباً بين المدافعين عن الحريات المدنية، وهم المستفيدون الرئيسيون من وجودها. إن حق التعبير الحر عن الرأي وحرية الحصول على المعلومات هما الحق الإنساني الأساسي، وهذا من حيث المبدأ متوفر للجميع، رغم أنه عملياً يرتبط بمدى ما يملك المرء من امتيازات خاصة وقدرة ومران وتسهيلات لممارسته بطريقة معقولة. إن التهرب بالنسبة لعامة الشعب، من نظام التلقين أمر صعب للغاية، وينطبق الأمر من الناحية العملية على ما يتعلق بالحقوق المشروعة. فهناك طرائق ووسائل مفصلة متضمنة في قانون حماية الفرد من ظلم الدولة أو القوة الخاصة، وتكشف دراسة العدالة الجنائية أنه هناك أيضاً وإلى حد كبير، يملك المرء الحقوق التي يستطيع شراءها»[٢٨]، ويشرح تشومسكي كيف تتسنى حرية إبداء الرأي إذا ما عرفت خبايا المفاجآت من

وراءها فيقول : «ليس من المفاجئ أن يفهم المجتمع التجاري «الديمقراطية» كما شرحها برنايز، ولعل ما يعتبر غير عادي حول الولايات المتحدة ومهماً لفهم السياسات الأمريكية، وهو مدى سيطرة هذه الآراء في أوساط النخبة الفكرية وجهاز الضوابط المفصل الذي تطور على مدى السنين لتطبيق هذه المبادئ، وتختلف تقنيات التلقين التي تطورت في الولايات المتحدة اختلافاً جذرياً عن تلك التي تستخدم في مجتمعات العالم الكلّيانية، فالقوة نادراً ما يجري استخدامها لضمان الطاعة، رغم أنه من المفيد أن نتذكر أن اللجوء إلى القوة المباشرة ليس مستبعداً. وتذكرنا الاكتشافات الحديثة لنشاطات مكتب التحقيقات الفيدرالي في تشتيت ومضايقة المجموعات التي تعمل من أجل التغيير أو حتى المطالبة بالحقوق المدنية، وفي التحريض على إحراق المباني وتشجيع حروب العصابات وتأييد وتوجيه جيش إرهابي سري، وحتى في إحدى الحالات ثم الاشتراك المباشر في جريمة الاغتيال السياسي، تذكرنا ببساطة بالتاريخ الحافل المقيت لهذا المكتب الذي يعمل بانتظام كبوليس سياسي وطني يفرض الانسجام السياسي والطاعة. مع هذا فإن التقنية الرئيسية المستخدمة ليست القوة المباشرة، بل «هندسة القبول» الذي يتحقق عبر السيطرة على مجرى المعلومات ووسائل التعبير عن الرأي أو التحليل. لقد كان هذا النظام فعّالاً، وعليه يجب أن نفهم هذا النجاح أيضاً ما رغبنا في إدراك طبيعة المجتمع الأمريكي المعاصر وسيروراته السياسية»[٢٩]. ولعل مزيد من آراء تشومسكي حول حرية الرأي والإعلام يمكن تلمسها في كتابه : (السيطرة على الإعلام) ترجمة أميمة عبداللطيف .

إن الباحثين عن الحقيقة في الإسلام يجب أن يطرحوا التعصب على حسابها، ولقد سبق الإسلام غيره بمئات السنين إلى محاربة الجهالة والأمية من سمرقند، وبخارى، إلى فارس وقرطبة، كما اعترف بذلك منصفي الغربيين، وكان المسلمون على الرغم من تعدد دولهم من عباسيين في آسيا وأمويين في آسيا وأوروبا

وفاطميين في أفريقيا يتنافسون جاهدين في محو الأمية، ونشر الثقافة وإتاحة حرية البحث والنظر كاملة لجميع العلماء والأدباء، دون ما نظر إلى أديانهم أو عقائدهم أو أوطانهم أو أجناسهم، وكما وسعت سماحة الدولة الإسلامية الفلاسفة المسلمين أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن طفيل وابن رشد ومحمد بن موسى الخوارزمي وأحمد الفرغاني وأبي معشر البلخي ومحمد بن جابر الحراني المشهور بالبتاني، وسعت كذلك غير المسلمين من المسيحيين واليهود والوثنيين وغيرهم أمثال يوحنا بن ماسويه، وجيورجيس بن بختيشوع ، ونوبخت المنجم، وولده أبي سهيل وابن توما النصراني، ومتى بن يونس المنطقي وأولاده، وموسى بن شاكر وثابت بن قرة، وحنين بن إسحاق شيخ المترجمين في عصر المأمون، وابن ميمون اليهودي، وكثير من الصابئين وعباد النجوم، الذين نقلوا في ظلال هذه الحرية من اليونانية إلى العربية مؤلفات إقليدس ، وأرخميدس، وبطليموس وغيرهم.

ومن أعظم الأدلة العملية على كفالة الدولة الإسلامية لحرية الرأي أن عدد الفرق الدينية والعلمية التي كان بعضها يصارع بعضاً في ظلالها زاد عن مائة وعشرين فرقة، تحدثت عنها مؤلفات إسلامية كثيرة منها كتاب: (الفصل في الملل والنحل) لابن حزم الظاهري، وكتاب: (الملل والنحل) للشهرستاني، وكتاب: (الفَرَق بين الفِرَق)، وكتاب : (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) للفخر الرازي. وإلى جانب هذه الفرق والمذاهب الفلسفية والعلمية نجد المذاهب الدينية والفقهية الكثيرة كمذهب أبي حنيفة ومذهب مالك، ومذهب الشافعي ومذهب ابن حنبل، ومذهب الأوزاعي، ومذهب الليث بن سعد، وكذلك مذاهب الرافضة ومنها مذهب الزيدية، ومذهب الإمامية الإثني عشرية، كما نجد آراء علمية مستقلة تنسب إلى أصحابها من الصحابة أو التابعين أو المتأخرين فمن الصحابة عبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وعلي بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري، وأبي هريرة رضي الله عنهم جميعاً، ومن التابعين الحسن البصري، وسعيد بن المسيب

وإبراهيم النخعي وأبي يوسف وسحنون والمزني، والبويطي وابن أبي ليلى، وابن شبرمة، والثوري، وابن جرير الطبري، وداود الظاهري، والغزالي، وابن حزم، وابن تيمية، وابن القيم، والشوكاني، والصنعاني رحمهم الله تعالى، يقول المزني صاحب الإمام الشافعي في أول مختصره: « نهى الشافعي، عن تقليده وتقليد غيره، لأن التقليد ألد أعداء حرية الرأي، وهل يقلد إلا عصبي أو غبي»[٣٠]، وقال علي بن حرب: إن هذه الحرية العظيمة السمحة ، التي وسعتها الدولة الإسلامية، ظلت أوروبا محرومة منها أكثر من عشرة قرون، أزهقت الكهانة خلالها آلاف الأرواح البشرية، ولاحقت بلعناتها الأحرار، بل أبناؤهم وذريتهم الأبرياء، التي استباحت الكهانة أن تأخذهم بذنوب آبائهم ، ولا ذنب لهم إلا حب الحرية، يقول البابا أنوسان الثالث : «لايجوز أن نترك لأولاد الجاحدين الذين يخالفون العقيدة الكاثوليكية سوى الحياة ، وترك الحياة لهم منة وإحسان»[٣١].

وكانت السلطة الدينية في أوروبا باسم الدين لا تسمح بالتماس الدليل عن طريق التجربة العلمية، لأن ذلك يتنافى ومبدأ الإيمان الأعمى والتسليم المطلق الذي يرد الناس جميعاً عليه، حتى لا يفلتوا من قبضتها، بينما جاءت المدنية الإسلامية بالدعوة إلى جعل التجربة والمشاهدة والاستقراء أساساً للأبحاث العلمية، وذلك ما يعرف بالأسلوب العلمي التجريبي الذي يُزْعَم أن أول من رفع لواءه فرنسيس بيكون في القرن السابع عشر، ولكن سبقه إليه من عباقرة المدنية الإسلامية اثنان، أولهما الجاحظ الذي عاب في كتابه : (الحيوان) على أرسطو أنه لا يعتمد على التجربة والمشاهدة والامتحان، وثانيهما الحسن بن الهيثم البصري الذي جاء بعد الجاحظ بمائة سنة تقريباً، وهو رائد علم الضوء في القرن الرابع الهجري الموافق الحادي عشر الميلادي، وقد دعا إلى الأسلوب العلمي التجريبي فقال في كتابه (المناظر): «نبتدئ في البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات، وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما لا يتغير

بظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب مع انتقاد المقدمات، والتحفظ من الغلط في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننقده طلباً للحق لا الميل مع الآراء»[٣٢]، وتتحدث الكاتبة والباحثة والصحفية الأمريكية ديبورا بوتر عن حقيقة العلم والدين والمنهج التجريبي في حضارة الإسلام فتقول : «لقد جاء الإسلام بعصر التنوير الحقيقي في المجالات العلمية والثقافية والفنية بصورة لم يسبق لها مثيل في عظمتها إلى يوم الناس هذا، فبين عام ٧٠٠ و ١٤٠٠ بعد الميلاد وفي الوقت الذي كانت فيه أوربا تغط في سبات عميق في عصور الظلام المسماة بالعصور الوسطى، كان العلماء المسلمون قد توصلوا إلى النهج التجريبي في البحث عن حل محل المنهج المنطقي العقيم الذي كان سائداً عند الإغريق قبل ذلك، لقد أنتجت هذه الحقبة من الزمان للدنيا رجالاً عظاماً، ساهموا مساهمة عظيمة في تشييد صرح الحضارة الإنسانية وكانوا يستلهمون هديهم من القرآن الكريم في جميع نشاطاتهم»[٣٣] ، كما تؤكد الباحثة الأمريكية ديبورا بوتر كيف أن الغرب أفاد كثيراً من العلم التجريبي عند المسلمين وتتلمذ العلماء في الغرب على المسلمين فتقول: «إنه لاروجر بيكون ولا من جاء بعده من الأوربيين له أي فضل في اختراع الطريقة التجريبية، فلم يكن روجر بيكون إلا تلميذاً من الذين نهلوا من العلوم الإسلامية واقتبسوا طريقتها وكانوا رسلها إلى أوروبا المسيحية، وكان لا يفتأ يعلن لمعاصريه أن الإلمام باللغة العربية والعلوم العربية هو السبيل الوحيد نحو المعرفة الصحيحة»[٣٤] .

كانت الكنيسة في أوروبا باسم الدين لا تقر البحث في النفس بحثاً علمياً أو فلسفياً أو حتى بحثاً دينياً وروحياً، ولا ترى مثل هذا البحث إلا سفسطة، لا طائل من ورائها. ثم جاءت المدنية الإسلامية داعية إلى حرية البحث العلمي في النفس وقواها ومداركها وكل ما له صلة بها وهذا ما جعلنا نؤكد على النفس وحقوقها مما

تكلمنا عنه في الفصل المتصل بالنواقص في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وفي ظل هذه الحرية نمت البذرة الأولى التي بذرها ابن سينا في حقل (علم النفس)، ذلك العالم المسلم الذي سبق علماء الغرب الحديث بعدة قرون إلى تقرير نظريات علمية عن النفس الإنسانية، مثل اختلاف الأشخاص في قوة التخيل المستعيد، وفي المقدرة على استعادة أنواع معينة من الصور والتذكر والتبصر، وهو ما انتهى إليه في العصر الحديث العالمان جالتون وشاركتون بعد أن تمت الثورة على الكنيسة وحجرها على العقول. وهذه أمور موجودة في الشريعة الإسلامية كثيراً ذكرت في القرآن والسنة بعبارات : «أفلا يتذكرون، أفلا يتدبرون، أفلا يعقلون، أفلا يبصرون»، قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾[٣٥]، ففي الشريعة الإسلامية الأنفس ثلاثة: النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة، فالنفس الأمارة بالسوء هي النفس الشيطانية التي تدعو إلى الشر والسوء ولا تقبل الخير والحق، وقد ذكرت النفس الأمارة بالسوء في ثنايا قصة نبي الله يوسف عليه السلام في القرآن الكريم عندما أذعنت إمرأة العزيز للحق وقالت كما حكى القرآن في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣٦]، وأما النفس اللوامة هي النفس المؤمنة بالله ولكنها تقع في المعاصي فبعض أصحابها يتوب إلى الله وينيب ويلومها على تقصيرها وفسادها ، وبعضها يسوف التوبة حتى إذا بعث يوم القيامة لام نفسه على ذنوبها ، قال تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلاَّ لا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾[٣٧]، أما النفس المطمئنة فهي نفوس عباد

الله الصالحين الذين شرح الله صدورهم للخير والحق كما في قوله جل وعلا: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[٣٨]، والآيات السابقات تدل على حال أنفس الناس الثلاث وما يلاقونه يوم الوقوف بين يدي الرحمن وقد نشرت الصحف ووضعت الموازين القسط فيتذكر الناس أصحاب النفوس الأمارة بالسوء وأصحاب النفوس التي لم تتب وتلوم نفسها حينذاك، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[٣٩]، فهو يندم على تفريط نفسه في المعاصي والشر، عن محمد بن عمرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة ولود أنه يرد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب»**[٤٠]، أي حقر عمله لفضل الله عليه مما أنعم عليه من نعم لا تحصى ولكن الله سبحانه وتعالى يجازي أصحاب النفوس المطمئنة فيخاطبها بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[٤١]. هذه أحوال النفوس واختلاف أنواعها ويندرج تحت ذلك اختلاف قدراتها في تلقي العلم والفهم والفطنة والذكاء والإدراك والمشاعر والأحاسيس والعواطف. تلك هي الفروق الفردية التي يعرفها علماء التربية والتعليم وعلماء النفس وأطباء الطب النفسي، ولهذا دعا الإسلام الناس إلى التبصر والتفكر وكذا إلى حفظ حقوق الناس وما تحمله جنباتهم من نفوس أياً كان نوعها والتفاعل معها بالقسط والعدل والحق[٤٢]. وعن الاضطرابات النفسية والقلق والخواء الروحي الذي ينتاب الإنسان الغربي المعاصر يتكلم ضابط البحرية البريطاني ف. فيليويز **F.Filweas** بقوله: «هناك فراغ روحي كبير في الغرب، لم يستطع أي مبدأ من المبادئ ولا أية عقيدة أن تملأه وتحقق السعادة للإنسان هناك، فرغم الثراء المادي وما يسمى بالرخاء الاقتصادي وتحقيق كافة الرغبات المادية للشعوب، فإن الإنسان الغربي لا يزال يحس بتفاهة حياته ويتساءل:

لماذا أعيش؟ وإلى أين أسير؟ ولماذا؟ ولا أحد يقدم له حتى الآن الإجابة عن هذه الأسئلة. وما درى المسكين أن دواءه في الدين القويم الذي لا يعرف عنه إلا الشبهات. ولكن بداية النور قد بدأت تشقشق والصبح قد بدأ يسفر، بدخول جماعات ولو قليلة من الغربيين في الإسلام. وبدأ الإنسان الغربي يرى بأم عينه رجالاً ونساء يطبقون الإسلام ويعيشون به، وفي كل يوم يدخل بعضهم في الدين الحق، إنها البداية»[٤٣]، وسبب ذلك الإخفاق النفسي والخواء الروحي راجع إلى عدم معرفة حقيقة النفس الإنسانية التي حاربتها الكنيسة منذ القدم ولم يكترث العلم الحديث بمعرفة ذلك برغم وجود الطب النفسي وغيره.

والقلوب كما في علم النفس الطبي تصاب بكثير من الأدواء التي تؤدي إلى إضاعة الإنسان لحقوقه وكذا إضاعة حقوق الآخرين، ولهذا فكلمة مرض وما يلحق بها من أمراض القلوب ذكرت في القرآن فيما يزيد عن عشرين مرة، فمن أمراض القلوب التي تضيع معها حقوق الإنسان الحقد، والحسد، والغل، والميل نحو الشهوات وحب الشبهات والغي وجميع أنواع الرذائل والفساد والظلم والجبروت والقهر والعدوان وإشعال نيران الحروب، فضلاً عن أمراض الشك والارتياب وهذه متصلة بأمور الإيمان والاعتقاد وهو من أشد الأمراض، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤٤]، ولهذا نجد في الشريعة الإسلامية الحث على ستر المرأة نفسها ومحاسنها من اعتداء المعتدين بأقوالهم وأفعالهم ونظراتهم المسمومة المحمومة، إذ إن تبرج المرأة وسفورها واختلاطها بالرجال تسبب في مرض اجتماعي ديني في كثير من الدول وهو الاغتصاب والعدوان الجنسي وقد خاطب القرآن الكريم في تشريعه النساء وأولهن زوجات الرسول ﷺ في قوله تعالى : ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[٤٥]، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب، ولهذا يأمر الإسلام المرأة بالحجاب والستر لما في المجتمع من مرضى القلوب وما فيها من سقم، لدى بعض الناس الذين يُفْتِنون ويَفْتَنُون.

إن الكهانة الدينية ومسوح الرهبنة كانت لا ترى الحيوانات والنباتات شيئاً يستحق الدراسة والبحث، حتى لا يشتغل الناس بمثل هذه البحوث التافهة عن تقديم فروض الطاعة والولاء للكنيسة، بينما جاءت المدنية الإسلامية بالدعوة إلى البحث العلمي في الحيوانات والنباتات. ودراسة الحيوانات والنباتات أفضت إلى تأسيس علم الأحياء الذي جاء علماء الإسلام فيه بكثير من الأقوال بحرية رأي، وقد تفرع من هذا العلم فرعين علم الحيوان **Zoology** وعلم النبات **Batony** ، وكان لأبي عثمان الجاحظ فضل السبق إلى كثير من الآراء في علم الحيوان كما أوردها في كتابه: (الحيوان) ما ذكرناه قبل قليل، ومنها الرأي القائل بأن للحيوان ذكاء يدنو من ذكاء الإنسان بل قد يساويه، وهذا الرأي اكتشفه بعد ذلك بمئات السنين أندريه ميزون، بعد أن صحبها في الغابات زمناً ليس بالقصير وخرج بدراسات علمية لها قيمتها، كما كان لابن البيطار العالم النباتي المشهور فضل السبق إلى وصف مائتين من أنواع النباتات لم يسبقه أحد إلى وصفها، وذلك في كتابه: (الأدوية المفردة)[٤٦] ، وفي الشريعة الإسلامية ما يدل على أن كل شيء من سماء وأرض وشجر وحجر وسبع وطير له خصائصه وروحه وخضوعه لله، فكل ذلك خلق الله يسبح بحمد ربه، قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾[٤٧].

وكانت الكهانة المسيحية لا تأذن لغير الكهنة في الحرية التامة من مزاولة الطب، وما كان الطب عندهم إلا أوهاماً وخرافات لها صلتها الوثيقة بالجن والشياطين والرقى والتعاويذ، فلما زحفت المدنية الإسلامية إلى الغرب أبعدت الكهنة عن الطب، واعتبرت الطب علماً لا خرافة، وحقائق لا أوهاماً وداء ودواء،

لامساً من الجن (وإن كان المس يقع أحياناً)، ولا صدعاً من الشياطين، ولا انتقاماً من الله، ورأت أوروبا في ظلال المدنية الإسلامية خلقاً جديداً من الأطباء جعلها تردد مع التاريخ في إعجاب وإجلال بقول قائلهم : «كان الطب معدوماً فأحياه جالينوس وكان متفرقاً فجمعه الرازي، وكان ناقصاً فكمله ابن سينا»[٤٨]، يقول جورج حنا : «لا يسعنا إلا أن نسجل استغرابنا ما يدّعيه بعض المكابرين، الذين ينكرون قيام حضارة عربية في التاريخ، فإذا كانت البحوث العلمية والفلسفية والثقافية مضافاً إليها الأعمال الفنية، وما تنطوي عليه كل هذه الشؤون من قيم، لا تشكل حضارة ذات شأن، فماذا تكون إذن الدعائم التي تقوم عليها الحضارات؟ صحيح أن العرب نقلوا عن اليونان والفرس والهنود والرومان، ولكن هل ينكر عليهم ما أدوه على ذلك باكتشافاتهم في الطب والكيمياء والجبر والفلك والرياضيات، وفي الفن أيضاً؟ وهل من الإنصاف أن ينكر على فلاسفتهم وحكمائهم، نظرياتهم في الاجتماع والاقتصاد والإدارة؟ ثم ماذا يضير العرب إذا كانوا نبشوا ما كان دفينًا من فلسفة اليونان وحضارتهم وأظهروه إلى النور؟ إن من يطالع الكتب الغربية التي أنتجها عصر النهضة، يجد فيها أثر علماء العرب واضحاً فما جاء به مونتسكيو و باكون وعلماء الاجتماع في القرن السادس عشر والسابع عشر، تجده أو تجد له تمهيداً على الأقل، في مقدمة ابن خلدون، هذه المقدمة التي لم تترك حقلاً من حقول البحث الاجتماعي إلا وطرقته، حتى شهد علماء الغرب أنفسهم أنها أعظم مؤلف علمي واجتماعي. وكتب الفلك الغربية محشوة بالكلمات العربية التي لم يجد علماء الفلك الغربيون بُدًا من تبنيها، والأرقام الغربية ليست إلا أرقامًا عربية. كل هذا إنما يدل على مدى اقتباس العلوم الغربية من العلوم العربية . إن ما تحويه المؤلفات العلمية والفلسفية الغربية من أمثال هذه الشواهد لدليل على أن النضج الفكري والعلمي الذي نقرأ عنه في عصر النهضة الغربية وبعدها، إنما كان متأثراً إلى حد بعيد بالنضج الفكري والعلمي عند العرب، بل كان مؤسساً

عليه ومقتبساً منه»[٤٩]. كما رأت أوروبا للمرة الأولى في تاريخها مدرسة علمية للطب في مدينتي ساليرنو ونابولي بإيطاليا اعتمدت على حضارة الإسلام، وسمعت كلمات ومصطلحات طبية عربية ما تزال محتفظة بعروبتها حتى اليوم في اللغات الأجنبية مثل السوداء والشراب والقلى والكحول والأكسير، ويلاحظ أن هذه الكلمة الأخيرة لا تكتب في اللغات الأوروبية على اختلافها إلا معرفة بالألف واللام، وهي أداة التعريف في اللغة العربية ، على حين أنها في الأصل ليست إلا كلمة يونانية معناها يابس أو جاف مثل كلمة اكسيروس Xeros ، ورأت أوروبا وسمعت للمرة الأولى أن أبا بكر الرازي أول من فرق بين الحصبة والجدري، وابن سينا أول من زاول العلاج النفسي مستعينًا بالإيحاء، قبل أن يستعين به جوان في عام ١٥٢٥م معلناً أن هنالك أسباباً غير عضوية تسبب بعض الأمراض العصبية أو النفسية التي لا تعالج بما تعالج به الأمراض الجسمية، ثم جعلت أوروبا كتاب ابن سينا : (قانون الطب)، مرجعاً علمياً لأطبائها، وأساساً لبرامج الدراسات الطبية في أسبانيا وفرنسا وإيطاليا حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر، كما عرفت أوروبا الطبيب المسلم ابن الخطيب والذي كان أول من كشف عن السر الحقيقي لانتشار وباء الطاعون في أوروبا خلال القرن الرابع عشر. كما عرفت أوروبا الطبيب الجراح الأول في العصور الوسطى وهو أبو القاسم الزهراوي القرطبي، فترجمت كتابه في الجراحة إلى اللغة اللاتينية واعتمدت عليه في تدريس الجراحة بجامعاتها ومنها جامعة أكسفورد في بريطانيا حتى عام١٧٧٨م[٥٠]، يقول جورج حنا : «لقد دهش الصليبيون من التقدم العلمي والفكري في الشرق. فكانوا عندما يعودون إلى بلادهم، يَرْوُون لمواطنيهم الروايات المختلفة عنه، ويشوقونهم للاقتداء بالنهضة الفكرية فيه، وعندما عاد الإمبراطور النورماني فردريك الثاني إلى بلاده، أسس جامعة نابولي وجامعة ساليرنوا الطبية، واعتمد في هاتين الجامعتين الدروس التي وضعها ابن سيناء والرازي وابن رشد وابن خلدون وسائر أقطاب العلم والفلسفة

العربية، وهو الذي أدخل الأرقام العربية وعلم الجبر إلى أوروبا. وإن جامعتي نابولي وساليرنوا كانتا النافذة الأولى التي تسربت منها النهضة الفكرية إلى أوروبا، ووضعت أساساً للنهضة الفكرية فيها، في العهد الذي عرف بعهد الانبعاث»[٥١]، كل هذه الحقائق تدل على اهتمام الإسلام بحرية العلم والرأي والتعبير في فروع المعرفة المختلفة خصوصاً العلاج الطبي للأدواء، إذ ظن القوم أن المرض ضرب من المس أو صرع من الشيطان. ومع أنهم يستطيلون بشرف الانتساب إلى نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إلا أنهم لم يعرفوا كثيراً مما بلَّغ عن أمر ربه في أمور الدنيا ومنها المرض فأبو الأنبياء إبراهيم ﷺ كما يشير القرآن الكريم يعترف بكل عبودية وخضوع إلى ربوبية الله وألوهيته وأسمائه وصفاته، ويؤمن بأن الذي يمرض ويشفي هو الله وليس الجن والشياطين كما حكى القرآن حال إبراهيم في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[٥٢]، وهذا اعتراف تام بحقوق الله وفضله ونعمه من عبده ورسوله إبراهيم عليه السلام، والإسلام فتح أمام المسلمين آفاق الطب والتطبب وقد صنفت الكثير من الكتب التي تتكلم عن الأحاديث النبوية في أمور الطب ومنها كتاب: (الأحكام النبوية في الصناعة الطبية) لأبي الحسن علي بن عبدالكريم بن طرخان بن تقي الحموي علاء الدين الكحال، وكذا كتاب : (الطب النبوي) لابن قيم الجوزية الذي كان كتابه مبنياً على كتاب الكحال، ولا ننسى الكثير من الكتب الأخرى الذي ألفها علماء المسلمين مثل الرازي وابن سينا خصوصاً كتابه (القانون)، وكتاب: (تذكرة داود الأنطاكي) وغيرها، وفيها الحديث عن ما يصلح الأبدان من الأدوية وما ينصح به عن الأدواء والابتعاد عنها، وكل ذلك مبني على حفظ حق الإنسان وصحته، ولننظر إلى القاعدة الإسلامية العريضة في حفظ حقوق الناس الصحية قوله ﷺ : **«من طبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو**

ضامن»[٥٣]، وفي رواية لأبي نعيم قال رسول الله ﷺ : **«من تطبب ولم يكن معروفاً فأصاب نفساً فما دونها فهو ضامن»**[٥٤]، أي أن من يدعي الطب وهو ليس بطبيب فيعرض أجسام الناس وأرواحهم للخطر والموت فهو ضامن على ما لحق الإنسان من ضرر في نفسه وبدنه وإهدار لحقوقه الصحية، وعن أسامة بن شريك قال : «شهدت الأعراب يسألون النبي ﷺ : أعلينا حرج في كذا؟ أعلينا حرج في كذا فقال : **«عباد الله وضع الله الحرج إلا من اقترض من عرض أخيه شيئاً فذاك الذي حرج، قالوا يارسول الله : هل علينا حرج ألا نتداوى؟ قال : تداووا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلا وضع معه شفاء إلا الهرم، قالوا : يارسول الله ما خير ما أعطي العبد؟ قال: خلق حسن»**[٥٥].

وهناك الكثير من الأحاديث النبوية التي تبين خصائص الأطعمة والأشربة وفوائدها والأوقات المناسبة لتناولها والمقادير اللازمة منها حسب حاجة الجسد ومناسبة الأعصار والأمصار ، كما أن هناك أحاديث كثيرة في بيان حفظ الصحة من كثرة الجماع ومسببات الرعاف والإسهال ...الخ، وكذا أحاديث الحفاظ على الصحة بكيفية الأكل والشرب والهيئة التي يكون عليها الإنسان، كما أن هناك بيان للأمراض التي تصيب الرجال والنساء والشيوخ والأطفال وطرق التداوي لكل صنف، كما أن الإسلام اهتم بطب الحيوان والنبات وفي ذلك أحاديث كثيرة تراجع في مظانها ، والصحة والعافية مطلب وحق لكل إنسان، قال رسول الله ﷺ : **« لو لم يكن لابن آدم إلا السلامة والصحة لكفتاه دواءً »**[٥٦] .

وكان رجال الكنيسة في أوروبا باسم الدين لا يسمحون لأحد في النظر إلى السماء ونجومها إلا على سبيل الدعاء والاستغفار والصلاة ، فجاءت المدنية الإسلامية وأنشأت أول مرصد فلكي بإشبيلية تحت إشراف جابر بن حيان عام١١٩٦م، ولما جاء محمد بن موسى الخوارزمي ابتكر ما يعرف باسم : « الزيج الفلكي العربي »، وهو أساس ما عرفته أوروبا بعد ذلك باسم : « الزيج الفلكي

الفرنسي »، وفي اللغات الأوروبية حتى اليوم كثير من أسماء النجوم محتفظة بألفاظها العربية مثل عقرب، جدي، مذنب، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[٥٧] ، إن الآية التي ذكرناها فيها بيان للناس على ما في الكون وما يدور في أفلاكه في الليل والنهار وتعاقب الشمس والقمر والنجوم الثوابت، وهي علامات يهتدي بها الناس وهي مدار لمعرفة عدد السنين والحساب والأيام والساعات، وهي لم تجعل للعبادة ولا يعتد بها في العبادات كما يفعل كثير من الناس الذين يشركون الكواكب مع الواحد الأحد ويتفاءلون أو يتطيرون بها، ولو ألقينا نظرة على انعكاسات الاعتقاد في الفلك وعلم النجوم والأبراج كما في التراث الإغريقي والهليني وما تحويه مسرحيات شكسبير مثلاً، وعلى الأخص المسرحيات التاريخية التي تصور مشاهد الحروب الأهلية والقلاقل التي كانت تسود أوروبا، ولم يكن ذلك التصور مجرد وصف لنظام أو نظم سياسية فحسب، بل كان جزءاً لا يتجزأ من نظام كوني أشمل وأعم، يمثل أطرافاً ثلاثة : الإنسان، ومجموعة الكيانات، وأحوال الكون، وفكرة النظام الكوني كانت إحدى الأفكار المهيمنة في ذلك العصر أي عصر النهضة، ونحن هنا نسوق أمثلة من أعمال شكسبير المسرحية التي تخص الإنسان والكون كما بدت له في منظورها الذي ورثه من أدباء اليونان والرومان وعلمائهم والتي هي جزء من فكره المسيحي وما في الإنجيل من اعتقادات، فمعلوم أن جملة المعتقدات التي اعتقد فيها الساسة في عصر النهضة ، عصر الملكة إليزابيث الأولى، وامتدت إلى عهد الملكة فكتوريا تمثل فكرة تكوين الدنيا وسير الحياة وتنظيم الكون، وسلسلة الخلق الهائلة، وكل هذا كان ينطلق من فكرة نيميزيوس في كتابه: (طبيعة الإنسان) الذي ترجمه جورج ويذر من اليونانية إلى الإنجليزية عام١٥٣٦م، وفيه يقول : «يا للإنسان تحفة رائعة، يا لسمو فكره، ويا لقدرته غير المتناهية، يا لخفته

وروعته في السمت والحركة، يا للشَّبه بينه وبين ملك في فعاله، وبينه وبين إله في إدراكه، هو صورة الجمال في الدنيا، ومثال الكمال بين الحيوان» [٥٨]، والواقع أن هذا القول جزء من تراث العصور الوسطى الديني في الغرب في أوضح أشكاله، التي تعبر عن الثناء التقليدي لصورة الإنسان، الذي خلق على صورة الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. إن الإيمان بمنازل النجوم، وتأثير الأبراج على حياة الناس فكر وثني، ساد لدى الإغريق والرومان، واحتضنه الغربيون في حياتهم ومعتقداتهم[٥٩]. وهذا عكس الفكر الإسلامي الذي يقوم على التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى خصوصاً في قضايا الفلك التي اهتم بها العالم ابن رشد والذي قال عنه إيتين دينيه : « نستطيع أن نبرهن على أن المحاولات الأولى في السعي إلى تحرير الفكر كانت أثراً منطقياً للمبادئ التي جاء بها محمدﷺ، فإلى الفيلسوف المسلم ابن رشد يرجع الفضل في إدخال حرية الرأي (التي يجب أن لا نخلط بينها وبين الإلحاد) في أوروبا. وقد عارض ابن رشد وحدة الوجود القديمة والتجسيم المسيحي بعقيدة الإيمان بالله وحده في الإسلام، وتحمس أحرار الفكر في العصر الوسيط الأوروبي لشروحه لأرسطو، وإن كانت هذه الشروح مصبوغة بصبغة إسلامية قوية. ويمكن أن نعتبر ــ بحق ــ أن التيار الفكري الذي نشأ عن هذا التحمس لابن رشد كان أصل التفكير المنطقي الحديث فضلاً عن كونه من أصول الإصلاح الديني»[٦٠].

وعن قوانين نظام الحياة، والتدرج بدءاً بالحياة وانتهاءً بالموت، جهلاً بحقيقة مالك الملك، الدائم الذي لا يموت، نجد شكسبير في مسرحية (ترويلس وكريسيدا)، وهي الملهاة التي كتبها مستنداً على رواية أحداث قصة طروادة الشهيرة، وهي تصور حب ترويلس أحد أبناء بريام ملك طروادة لكريسيدا، فتاة غريرة، ابنة الكاهن كالكاس الطروادي والقصة وردت أيضاً في شعر تشوسر وغيره من كتاب الأدب الإنجليزي الذين استقوا مادتهم العلمية من مكونات التراث

الديني المسيحي، وفي خلفية القصة يصور شكسبير الشخصيات الرئيسة (للإلياذة) في معسكري الإغريق الطروادين على السواء، وهنا يظهر مفهوم الكون مراراً وتكراراً على أساس الفكر النصراني فنقرأ العبارة الآتية : «إن السماوات نفسها، والكواكب السيارة، وهذا المركز الأرضي، جميعها تتبع قوانين التدرج والأسبقية، والتزام المكان الصحيح، كما تلتزم قوانين الطبيعة والتوازن، واطراد المواسم، والنظام العام فضلاً عن أداء الواجبات واتباع العرف، كل ذلك بمنتهى الانتظام، ولهذا السبب، فإن كوكب الشمس الجليل يحتل مكان الصدارة في فلكه الذي يتوسط سائر الأفلاك، وبنظراته الشافية يقوم ما انحرف من أوضاع الكواكب الشريرة، في علاقتها بالإنسان، فيأمر كالملوك، وينهى باعثاً بالرسل للطيب والرديء معاً، فلا يعوقه عائق، أما إذا اختل نظام الكواكب، فتردت في اختلاط ضار، فأية أوبئة وأية نذر وأي عصيان، وأي اضطراب للبحر واهتزاز للأرض ، وهياج للرياح، وأية مخاوف وتلبات وأهوال، سوف تزعزع تماسك الأوضاع وتوافقها، وسوف تصدعها وتمزقها وتقتلعها من مستقرها المكين، وحين تهتز قواعد التدرج، وهي المراقي لجميع المقاصد النبيلة، تنخر العلة في نشاط البشر، فكيف يتسنى للجماعات، وللفصول في المدارس، وللطوائف في المدن، وللتجارة المسالمة عبر البحار، ولنظام البكورة، ومتطلبات كرم المحتد، ولامتياز التقدم في السن وحقوق التيجان والصوالجة وأكاليل الغار، كيف يتسنى لهذا كله احتلال مكانه الحقيقي، لولا قواعد التدرج؟ عطل إذاً مقتضيات التدرج، وأفسد أنغام ذاك الوتر، ثم أنصت إلى ما يترتب على هذا من تنافر في الأصوات، إن الأشياء كلها تتلاقى في صدام أعمى فالمياه المحاصرة بالتخوم تشرئب بصدورها، فتجاوز شطئانها ارتفاعاً، جاعلة من هذه الأرض الصلبة لقمة مبسوسة، ويتسيد الأقوياء الضعفاء، ويضرب الابن الفظ أباه، فيرديه قتيلاً، هذه هي الفوضى التي تخلف انقضاء التدرج طالما يعتريه الموات»[٦١].

لم يكن هذا هو اعتقاد أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي يستطيل

اليهود والنصارى بشرف الانتساب إليه، إنه على الفطرة التي فطره الله سبحانه وتعالى عليها، فطرة الإيمان والتوحيد، الملة الحنيفية، فلقد كان إبراهيم عليه صلوات الله وسلامه يتفكر في خلق السموات والأرض، ليتعرف على الإله الواحد، وتفرده في تصريف الأمور في هذا الكون وما فيه من سماوات وأراضين وبحار وأشجار وطيور وإنس وجن ..الخ كما تصوره الآيات التاليات، قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[٦٢]، هذا هو التوحيد، وهذا هو الإيمان بالله لا شريك له، فلم يكن إبراهيم عليه الصلاة والسلام يهودياً ولا نصرانياً، بل كان حنيفاً مسلماً لم يكن يعتقد في سلطان الكواكب والمجرات، لم يكن يخشى أبراج الفلك بل إنه استصغرها لأنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً تطلع بإذن الله وتغيب بأمره.

إذاً على كل عاقل أن يحرر عقول شعوبه من مثل هذه المعتقدات الضالة التي تعتقد في تأثير النجوم والأبراج وهي تحارب الإسلام بأنه دين زيف وباطل، على الغرب أن يحقق للإنسان حقه الفكري والعقدي كما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، الذين يدعون نسبة اليهودية والنصرانية إليه وهو محض كذب وافتراء ،

ولقد عرف الغرب التحرر الفكري وحرية الرأي بعد أن اطلع على القواعد الإنسانية في الإسلام في تحرير العقل والفكر وحرية الرأي ووصل بذلك إلى ما وصل إليه اليوم بعد طول سبات مما سنوضحه في الصفحات التالية للمقارنة والمقاربة بين الماضي والحاضر والتاريخ والواقع.

كانت الكنيسة المسيحية في أوروبا باسم الدين تحجر على العقول، ولا تعترف بما عرف بعد ذلك باسم الرياضيات مكتفية بالرياضة الروحية الكهنوتية التي تستبقي بها إخلاص الناس لها وحفاوتهم بها. فجاءت المدنية الإسلامية بالرياضة العقلية، رياضة الحساب والجبر والهندسة، وأول من صنف كتاباً في الرياضيات هو محمد بن موسى الخوارزمي وسماه : (الجبر)، وترجمته أوروبا إلى لغتها في أواخر القرن الثامن عشر، وما يزال الأوروبيون حتى اليوم ينطقون باسم هذا العلم بلفظه العربي الجميل (الجبرا)، وظل كتاب الخوارزمي هذا هو المرجع الرياضي الوحيد لأوروبا وجامعاتها زمناً طويلاً، ومن الأساتذة العرب الأوروبيين في الرياضة أيضاً ثابت بن قره الذي أضاف إلى بحوثه في نظرية الأرقام أبحاثاً جليلة أخرى في الطب والفلسفة، وأضاف إلى الأرقام الهندية التي أخذها عن الهنود أرقاماً عربية ابتكرها بنفسه منها رقم الصفر، وكلمة (الصفر)، في اللغات الأوروبية مأخوذة عن الكلمة العربية كما حقق ذلك فيليب حتى[٦٣]، ومن أبرع الرياضيين الذين تفخر بهم الدولة الإسلامية وتدين لهم أوروبا بالفضل، العالم الرياضي المشهور ابن موسى الذي استطاع في القرن التاسع عشر أن يستبدل الأوتار بالمستقيمات في علم حساب المثلثات، وأن يكتشف المعادلات ذات الدرجة الثابتة. يقول البارون الفرنسي كاردي فو **Baron Carre De Vaux** عالم الرياضيات والفلسفة في المعهد الكاثوليكي في باريس لقد: « أنجز العرب أعظم المكتشفات العلمية فعلاً، فعلمونا استعمال الصفر وجعلوا (الجبر) علماً متقناً وتقدموا به، ووضعوا أسس علم الهندسة التحليلية وهم بلا منازع موجدوا علمي المثلثات المستوية والكروية اللذين

لم يكن للإغريق فضل في وجودهما إذا ما توخينا الحقيقة والإنصاف كما أنهم عملوا في الفلك أرصاداً عديدة قيمة، وحفظوا لنا بترجماتهم عدداً كبيراً من كتب الإغريق التي ضاعت أصولها، والسبب الآخر لاهتمامنا بعلم العرب هو تأثيره العظيم على الغرب. إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق من أحابيل البربرية وأغلالها. ووصلوا إلى قمة نشاطهم (الذي استمر حتى القرن الخامس عشر) في القرنين التاسع والعاشر، ومن القرن الثاني عشر فصاعداً كانت مراكش والشرق محط أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوقه، وفي هذه الفترة شرع أبناء أوروبا يترجمون آثار العرب كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق، وهكذا كانوا همزة وصل بين الثقافة القديمة والمدنية الجديدة، عندما عادت النفس الإنسانية في عهد الإحياء العلمي لتمتلئ ثانية بحب المعرفة والاستقصاء ولتتنبه بوميض من العبقرية العلمية. فإن هي أفلحت في سلوك السبيل الأقوام للعمل، وإن أتيح لها الإنتاج والابتكار فما ذلك إلا لأن نفسية العرب قد حفظت وأكملت مختلف فروع العلم وصانت روح البحث العلمي حيّة تائقة للتحرر وللحركة، متهيئة للمكتشفات المقبلة»[٦٤].

ومع مطلع العام الميلادي الجديد ٢٠٠٣م وفي حفل افتتاح معهد ماركفيلد للدراسات العليا بالمؤسسة الإسلامية بمدينة لستر البريطانية يتحدث ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز عن الحضارة الاسلامية فيقول : «نشكر الله الذي وفق المسلمين لإيجاد رقم الصفر في علوم الرياضيات الذي كان له كبير الأثر في فروع العلوم والمعرفة التي استفاد منها الغرب. كما لا ننسى إسهامات المسلمين في الطب والفلك والهندسة وعلوم البحار. وإن بريطانيا تفخر بأن البلاط الملكي ومجلس العموم وغيرهما من المؤسسات البريطانية الحكومية تضم في جنباتها عدد من المسلمين البريطانيين منذ القدم منهم على سبيل المثال اللورد هيدلي الذي اعتنق

الإسلام عام ١٩١٣م، واللورد وترهام الذي أصبح في عام ١٩٩٠م عضواً في مجلس اللوردات وغيرهم من الأطباء والمفكرين والباحثين، لهذا كله يجب على الغرب أن يتفهم الإسلام ويقدر حضارته ودينه»[٦٥].

والكنيسة في أوروبا باسم الدين كانت لا ترى فيما يعرف اليوم باسم الكيمياء إلا مسلاة أو ملهاة أو عبثاً، فجاءت المدنية الإسلامية إلى أوروبا، وألقت الدرس الأول في الكيمياء بلسان أبي الكيمياء جابر بن حيان، ثم كشفت لأوروبا عن بعض الأحماض الكيماوية، مثل حامض الكبريتيك الذي اكتشفه الرازي، وحامض الأوزوتيك المعروف بالماء الملكي الذي يذيب الذهب، وهو مزيج حامض الأزوتيك والكلورايدريك، وما أظرف ابن الرومي إذ يقول بشئ من المجاز المشوب بالطرفة مشيداً بقوة الكيمياء :

إن للحظ كيمياء إذا ما مس كلباً أحاله إنساناً

وقد شهد بأستاذية المسلمين والعرب لأوروبا ولاسيما في الكيمياء والصيدلة كثير من الأوروبيين المنصفين أنفسهم، وحسبنا منهم الآن الأستاذ (هلمياراد) القائل : «استنبط العرب من المعلومات الأولية التي كان يطلق عليها اسم (الكيمياء) في مدرسة الإسكندرية علماً بأصول أبانوا فيها للمرة الأولى العلاقة الصحيحة بين الحقائق التجريبية، والحقائق النظرية فاعترف الناس بفائدة التطبيق العملي لعلم الكيمياء، وابتدأت أوروبا أبحاثها الكيميائية على أساس سليم من الحقائق والنظريات، وكان أتباع النبي العربي محمد بن عبدالله ﷺ هم أصحاب الفضل على أجدادنا، فلنبادر إلى الاعتراف لهم بالجميل»[٦٦]، وفي الكلمات العربية الكيماوية التي تسربت إلى اللغات الأوروبية عن العربية الكحول والإثمد والإنبيق والقلي دليل ساطع على ما تدين به أوروبا وجامعاتها للمدنية الإسلامية العربية التي ازدهرت وتألقت في وقت كانت أوروبا فيه تتخبط في الظلمات، ولا

تكاد ترى الضوء إلا من سم الخياط على حد تعبير العالم الفرنسي (دوري)[٦٧]، ويقول ول ديورانت : «إن العلوم العربية تمت في علم الكيمياء الطريقة التجريبية العملية وهي أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره، ولما أعلن روجر بيكون هذه الطريقة إلى أوروبا بعد أن أعلنها جابر بن حيان بخمسمائة عام قبله كان الذي هداه إليها هو النور الذي أضاء له السبيل من عرب الأندلس وليس هذا الضياء نفسه إلا قبساً من نور المسلمين في الشرق»[٦٨].

ولم يفت المدنية الإسلامية أن تعرف صناعة الثلج التي لم تعرفها أوروبا حتى النصف الأخير من القرن السادس عشر، وحادثة شق صدر الرسول ﷺ عندما كان في بادية بني سعد عند مرضعته الكريمة السيدة حليمة السعدية بيان لمعرفة المسلمين للثلج ورسول الله ﷺ طفل صغير. ففي حادثة شق صدره الشريف ﷺ وغسله بالثلج دليل رصين على حضارة الإسلام، وهذه الحادثة رواها أبو نعيم في (الدلائل) والطبري في (التاريخ) وأيضاً ابن كثير في تاريخه، والقسطلاني في (المواهب)، روى ابن إسحاق الرواية المشهورة في هذه القصة في السيرة يقول : «حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له أخبرنا عن نفسك، قال : «**إنني دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر بينا أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب، مملوء ثلجاً فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى إذا أنقياه رداه كما كان**»[٦٩]، وفي رواية أبي نعيم والإمام أحمد وصححه الحاكم قال : « **فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فأخرجا منه علقتين سوداوين فقال أحدهما لصاحبه ائتني بماء ثلج ، فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذراها في قلبي ثم قال أحدهما لصاحبه: خِطْهُ فَخَاطه وختم على قلبي بخاتم النبوة**»[٧٠]، وروى مسلم عن أنس بن

مالك أن رسول الله ﷺ بمثل ما ذكر حتى قال أنس رضي الله عنه: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ، من هذا يتضح ذكر الثلج عند المسلمين وعلمهم به وهو ما نسمع به في حاضرنا عن عمليات القلب المفتوح الجراحية والتي لا تخاط إلا بعد أن تنقى وتغسل بالثلج لأنه مادة مطهرة ومعقمة كما ذكر في حادثة شق صدر الرسول ﷺ، وبالمعنى المجازي عن الثلج باعتباره مادة مطهرة فقد ورد الدعاء المأثور عن النبي ﷺ لطهارة النفس والروح من الذنوب والخطايا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبير وبين القراءة إسكاته ـ قال أحسبه قال هنية ـ فقلت بأبي وأمي يارسول الله إسكاتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال : « **أقول اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد** »[٧١]، وكذا في صلاة الجنازة يدعو المصلون للميت بأن يغسله الله سبحانه وتعالى بالماء والثلج والبرد، تطهيراً لذنوبه وخطاياه، هذا هو الإسلام دين الروح والقلب والحياة والعلم والطب والدنيا والآخرة.

هذا واقع العلم وحرية التعلّم والفكر وحال الكفايات العلمية من العلماء التي احتضنتها الدولة الإسلامية بوجه عام ووسعتها بمساحتها قولاً وعملاً دون ما نظر إلى أديانها وعقائدها، وأتاحت لها من حرية الرأي والعقيدة وحرية البحث العلمي ما لم يتحه أي مجتمع تقدمي آخر لعلمائه وباحثيه حتى اليوم، فكثير من الدول تصنع الأجهزة العلمية ولا تجعل كل أحد يتعلمها ولا يسمح بنقل بعض فروع المعرفة وتحويل التكنولوجيا من تلك الدول إلى دول أخرى تحتاجها. وهذا حجر على العلم مما كان الكهان يمارسونها على الناس، ونسأل: هل حجر العلم ونقل التقنية والإفادة من العلوم بالتبادل بين الأمم والشعوب هو من حفظ مبادئ حقوق الإنسان وتفعيل الصكوك الحقوقية؟ أم أنه من نواقضه، ولنتأمل القاعدة الإسلامية في حرية الفكر والعلم والتعبير في قوله ﷺ : «**من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة**

بلجام من نار»[٧٢]، بل أن بعض دول الغرب تصنع القوة النووية وتشجع إسرائيل على استعمالها وتزودها بالوسائل والمعلومات لمحاربة الإسلام والمسلمين الأبرياء، في حين تحرم تلك الدول على المسلمين كما هو مشاهد في حق باكستان وإيران وغيرهما من الدول معرفة أسرار الأسلحة وإن كان ذلك علم غير نافع، وهل صناعة أسلحة الدمار الشامل ما يحقق أغراض السلم وصالح البشرية؟ أم أنه مناقض لكل المبادئ الحقوقية، ولا ننسى ما يتعرض له بعض الدارسين في معاهد بعض الدول من حجر على حرية الرأي عندما يتناولوا بعض الموضوعات بالبحث والدرس، فكم حرم مجتهد من جهده بسبب هذا العنت الفكري والتسلط العلمي من أساتذة الجامعات ورؤساء مراكز البحث العلمي، فما أعظم أفضال الحضارة الإسلامية على أوربا ونهضتها، وما أجدرنا نحن وارثي هذه الحضارة الرائدة بالارتفاع إلى مستوى مسئوليتنا الكبرى وميراثنا الخالد لننشر العلم والحق والعدل والسلام والفضائل ودين التوحيد الخاص أولاً وقبل كل شيء.

هذه حقائق تاريخية تبين سمو الشريعة الإسلامية وأتباعها الذين يتبعون أحسن ما يستمعون من القول بعد بحثه وفحصه وتمحيصه بعيداً عن استخدام العلم في وجوه الشر والحروب والقهر والتدمير والفناء، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[٧٣]، أراد الله بذلك إيقاظ العقل والحث على تربية القوى الفكرية، مع الاعتداد بالنفس والعمل على استقلال الرأي وحرية التفكير، وحث الإسلام أهله على أن يتمثلوا الشجاعة لاستعمال عقولهم وإبداء آرائهم في كل ما يحقق مصالحهم، ويدفع المفاسد عنهم، فدعا إلى الاجتهاد، وجعل القياس وهو الرأي السديد في إلحاق الأشباه بالأشباه والنظائر بالنظائر في الأمور التي لم يرد فيها نص صريح من كتاب أو سنة، أحد مصادر التشريع الأربعة وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وفي هذا مجال فسيح للرأي وتقرير لحرية التفكير، وجاء

الإسلام داعياً إلى البحث والتنقيب وتصيد الحكمة والمعرفة (فالحكمة ضالة المؤمن)، (خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت).

وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين بدأوا يطلبون العلم بعد وفاة النبي ﷺ بست سنين ولم يتحرجوا من أخذ الحق والخير حيث وجدوهما، حتى إذا ما جاء العصر العباسي اشتد النهم عند المسلمين إلى المعارف الإنسانية يدرسونها في تحقيق واستقصاء ويستوعبونها حتى أصبح اللون من الثقافة الواسعة الشاملة، فلا غرو أن يوجد عند المسلمين كبار الأئمة الثقات في الدراسات التاريخية واللغوية والعلمية والطبية والسياسية، وأكثر من ذلك ضوابط حقوق الإنسان ولوازمها الإسلامية، وفي هذا الجو المشبع بالعلم، وهذا الأفق المفتوح للسعي والعمل، تغير الواقع من حولهم، وإن الدنيا بعد أن كانت تبدو لهم عقيماً وباطلاً تحولت في نظرهم إلى الجهاد العملي والتأمل النظري المجرد، استوعب العقل العربي بدافع قوي من الإسلام كل ما كان لدى الأمم السابقة في الطب والفلك والرياضيات والكيمياء والعلوم الزراعية والبيطرية، حتى نظروا فيما ألفوه في السحريات والطلسميات، فكان لهم من كل ذلك حظ وفير في تصحيح العقائد والمفاهيم بما لديهم من أحكام ذلك في الكتاب والسنة وتعارض تلك الأفعال بما يؤيده العقل والنقل، ولقد ساعد العلماء المتميزين على النبوغ أن الإسلام لم يحجر على العقول أن تخوض أي مجال من مجالات البحوث أيًا كان نوعها ومن أي بيئة صدرت مادامت منسجمة مع الشريعة الإسلامية، ومما لا مشاحة فيه أن هؤلاء العلماء اقتبسوا في علومهم عن اليونانيين والفرس والكلدانيين والهنود، وقد ساعدهم ذلك على توسيع دائرة سلطانهم العقلي ، ولم يكتفوا بما وجدوه من التراث العلمي بين يدي أهله، فعملوا على ترجمة ما كان مختزناً من المؤلفات في ثنايا المكتبات، وقضى على أصحابها التعصب للدين أن لا ينظروا فيها، وهذا الأمر نراه في اهتمام حكومات الدول الإسلامية والعربية في زماننا بإرسال أبناءها للتعلم في مؤسسات التعلم

العالمية المختلفة في كثير من الدول والتزود من العلم، وتحرير الفكر والرأي بناءً على قواعد الإسلام الصحيحة التي جاءت في قوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[٧٤]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[٧٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٧٦]، وعن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**[٧٧]، وفي هذا دليل على أهمية التخصص العلمي ودعوة الإسلام إليه وضرب لذلك مثلاً التفقه في علوم الدين والشريعة ثم ما دونها مطلوب أيضاً ليصل كلٌ في تخصصه إلى فقه وعلم ودراية ورواية، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها»**[٧٨]، لأن العلم يجعل من صاحبه عادلاً يؤدي للناس حقوقهم بميزان الحق الذي ناله من العلم. وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه : **«فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»**[٧٩]، وما من شك في أن الجهل ضياع للإنسان وحقوقه بأن يعيش سوياً بين الناس فالدلالة على الخير والعلم من حسن الخلق وواجب الإنسان في حق أخيه الإنسان . عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»**[٨٠]، فالدعوة إلى الخير والحق والفضيلة من سمات العلم والعلماء، والدعوة إلى سواهما سوء وباطل فهذا حق للإنسان فيما يجب أن يكون عليه العلم وأنه علم في هدى ونور وخير وفضل ، قال رسول الله ﷺ : **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»** [٨١]، والعلم النافع هو كل ما يؤدي إلى خير وصلاح الإنسانية، ومنها الأدوية التي تعالج الأمراض المستعصية والخبيثة، وصناعة الوسائل التي تصلح حياة الناس من الآلات والأدوات. وليس من العلم النافع صناعة

الأسلحة التي تدمر الإنسان وتنتهك حرماته وحقوقه وحدوده. وقيمة العلم الذي يورثه الإنسان يكون سبباً لصلاح حياته البرزخية، وهذا لحفظ حقوق الإنسان بعد موته بفضل ربه عليه مما يتركه من علم ينتفع به جميع الناس باعتباره حق لهم في حياة فاضلة كريمة أساسها العلم والحياة الإنسانية السوية العادلة في حرية وكرامة، قال رسول الله ﷺ : **«الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى، وما والاه ، وعالماً، أو متعلماً»**[٨٢]، وفي هذا مديح للعلم والعلماء وفضلهما، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»**[٨٣]، وهذا كما أشرنا فيه فائدة البعثات العلمية التي تعمل بها الحكومات الإسلامية في إرسال أبنائها لمختلف المؤسسات العلمية للتعلم ، وفيه طمأنينة على عظم الأجر لطالب العلم بسبب اجتهاده وبعده عن أهله ووطنه فيجعل الله له الثواب العظيم كثواب المجاهد في سبيل الله، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**[٨٤]، وهذا فضل من الله على العلماء ففي ذلك صورة بلاغية إيمانية عميقة تحث على العلم وأهميته، وميزة العلماء أنهم ورثة الأنبياء فيجب احترام حقوق الأنبياء والرسل وكذا احترام حقوق العلماء والمتعلمين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: **« من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار»**[٨٥]، وفي هذا وعيد شديد على من يكتم العلم لأن فيه غمط لحقوق الناس وحرمانهم من العلم والمعرفة وهذا ما تفعله معظم المؤسسات العلمية في الغرب بسياسة الاحتكار للتكسب المالي وللأهداف التجارية دونما اعتبار للعلم وأخلاقه.

ولعل الحرب الضروس التي كانت بين بعض مؤسسات الحاسب الآلي معلومة للجميع وما كان بين أحداث في الغرب خلال عامي ١٩٩٩م و ٢٠٠٠م. قال رسول الله ﷺ : « **من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عزوجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»(٨٦)، (يعني ريحها)، وهذا وعيد شديد آخر لمن يتخذ العلم رياءً وسمعة ولا يريد بذلك وجه الله والدار الآخرة. وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»(٨٧). ولما للعلم من أهمية فإن أكبر مصيبة تلحق الأمم والشعوب إذا ضاع العلم بموت العلماء وساد الجهل بين الناس، لأن العلم وحرية الرأي والفكر كما قلنا أساس كل الحريات والحقوق الخاصة بالإنسان، فالجهل يسبب الظلم والقهر والتسلط وضياع حقوق الإنسان وتسود الفوضى والحروب والعدوان.

٢ ـ الابتداع والاعتداء في العلم والفكر

يتضح من العرض السابق موقف الإسلام من العلم وحرية الرأي والحرية العلمية على عكس ما هو موجود في بعض الحضارات والأديان التي تخاطب عقلاً خاصاً محدوداً، خطاباً محدداً مخصوصاً، لا يتعدى هذا الجيل من الناس إلى غيره من الأجيال، ولا هذا القبيل إلى سواه من المجتمع، ولا ذلك التشريع إلى تشريع أوسع وأعمق، لأن العقل الإنساني العام في نظر أولئك لم يكن صالحاً حينئذ لهذا الخطاب العام. لكن الإسلام عمد إلى العقل الإنساني العام بعد أن تهيأ في تكوينه إلى الاضطلاع بعبء الحياة وخاطبه خطاب المرشد إلى الطريق الأقوم، وجعله قيماً على شؤون الحياة كلها، وأبى الإسلام أن يقبل سلطاناً غير سلطان العقل، وشدد النكير على الذين استسلموا لبلادة الحس، وأناموا عقولهم عن النظر والتفكير ناعياً عليهم

ازدراء عقولهم وتشبثهم بالغباء في اتباع آبائهم على ضلالاتهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾[٨٨]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ ﴾[٨٩]، فهذا التسفيه البالغ حد التحقير للمخاطبين من الاتباعيين المحرومين حرية الرأي والتعبير فيه إيلام شديد لنفوسهم، ولذع ولسع في أفئدتهم، وقد مهد له القرآن بقضية من بداهة الفطْرة حيث لا تختلف فيها العقول، سيقت هذه الآيات للتنبيه على موطن الخطأ العقلي في مسلكهم، حيث تعبدوا أنفسهم لما لا يستحق الحياة، بل له العبادة والتقديس، هم يعلمون أن الأصنام ليست لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا آذان تسمع بها[٩٠]، ولكن في نفي هذا المعلوم بداهة على طريق الاستفهام إزاء عقولهم بأبدع أسلوب فقال جل وعلا عنهم : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٩١]، وقد أراد القرآن الكريم بهذا المبدأ السامي إيقاظ العقل وتنبيهه إلى آداء مهمته وإبراء النفس الإنسانية من مرض التقليد الأصم، وتربية القوى الفكرية على الاعتداد بالنفس واستقلال الرأي وحرية التفكير، ولذلك أثنى على الذين أيقظوا عقولهم وتفلتوا من قيود التقليد إلى ساحات النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق، وساروا بسير العلم غير ملتفتين إلا إلى الحق فلم يقولوا كما وصفهم القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[٩٢]، ولا اعتذروا اعتذار العاجز الذليل كما قال جل وعلا: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴾[٩٣]، بل كان شأنهم التفكر والتدبر والتبصر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[٩٤].

والعلم وحرية الفكر بهذه الروح الهادئة القوية في شريعة الإسلام ضمن للإنسان ولنفسه البقاء والهيمنة على ما سواه فقال رسول الله ﷺ : «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**»(٩٥)، لقد فهم المسلمون الأولون الإسلام على هذا الأساس، فعظموا حرية الرأي تعظيماً جعل منهم أمة ناهضة، وقد تحدثنا في فصل سابق عن الشورى والمشاورة، وحرية تبادل الرأي في الإسلام بين الحاكم والمحكوم، وقد ضربنا مثلاً لذلك موقف الرسول ﷺ من حرية الرأي بخصوص أسرى هوازن، ونزوله لرأي الحباب بن المنذر في وقعة بدر الكبرى، كما أن ولاة أمور المسلمين على مر العصور والأزمان ساعدوا شعوبهم على حرية الرأي، فأمير المؤمنين الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بث في الأمة حرية الرأي بين كبيرها وصغيرها، فقد روى ابن الجوزي أن عمر بن الخطاب قال :«لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذي القصة، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال»، فقالت إمرأة من صف النساء طويلة في أنفها فطس : ماذاك لك، قال : ولِمَ؟، قالت: لأن الله يقول : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ فقال عمر : « امرأة أصابت، ورجل أخطأ »(٩٦)، وفي هذا دلالة على حرية الرأي والتعبير في الإسلام حتى عند المرأة وهي حجة أمام أولئك الذين يدَّعون بأن الإسلام هضم حقوق النساء في حرية الرأي وفي غيرها من الحقوق .

وإذا تأملنا في تاريخ الإسلام نجد أن رسول الله ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى ولم يخلّف على المسلمين رجلاً بعينه خليفة، وهذا كان ميسوراً له ﷺ، ولكن ليكون ذلك أثر من آثار حرية الرأي في الإسلام في اختيار ولي أمر المسلمين في انتخابه وبيعته، وأبو بكر رضي الله عنه لم يخلف عمر بن الخطاب إلا بعد أن فوض إليه المسلمون ذلك، روى ابن الجوزي : «أنه لما ثقل أبو بكر واستبان له من نفسه، جمع الناس إليه فقال : إنه قد نزل بي ما ترون، ولا أظنني إلا ميتاً لما بي،

وقد أطلق الله إيمانكم من بيعتي، وحل عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمرتم في حياة مني كان أجدر أن لا تختلفوا بعدي، فقاموا في ذلك وخلوا عليه، فلم تستقم لهم، فرجعوا إليه، فقالوا : رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فلعلكم تختلفون، قالوا: لا، قال: فعليكم عهد الله على الرضا، قالوا: نعم، قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده فكان أن رشح عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعاً »[٩٧].

فإذا كانت حرية الرأي في الإسلام تتجلى في أخطر مسألة يدور عليها كيان الأمة وهي اختيار الحاكم والخليفة، ويترك لكل مسلم أن يقول فيها رأيه في أحرج المواقف، كانت أحرى أن تتمشى مع الأمة في مراحلها التشريعية والاجتماعية، فأما التشريع فحسب القارئ الاطلاع على تاريخ فجر النهضة الإسلامية ليعلم كم كان من المجتهدين الذين لا يصدرون في رأي إلا عن كتاب الله أو سنة الرسول الصحيحة، وحتى أن الأصوليين يختلفون في أصحاب رسول الله هل جميعهم مجتهدون؟ وكتب الفقه والأصول مليئة بالفروع التي وقع فيها الخلاف بين الأئمة، وما عاب أحد منهم على أحد اجتهاده، ولا حجر عليه رأيه، فهذا مالك بن أنس إمام المدينة قال له أبو جعفر المنصور : « اجعل هذا العلم علماً واحداً، فقال له مالك: إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد فأفتى كل في مصره بما رأى، فلأهل المدينة قول، ولأهل العراق قول»، وفي رواية أنه قال له :«إن أهل العراق لا يرضون علمنا، فقال أبوجعفر : يضرب عليه عامتهم بالسيف، ونقطع عليه ظهورهم بالسياط، فأبى مالك»[٩٨]، فانظر إلى إجلال مالك بن أنس وهو من أجل أئمة المسلمين المقتدى بهم في مشارق الأرض ومغاربها لحرية الرأي وتجافيه عن خذلانها، خليفة المسلمين يعرض عليه نشر علمه في الأرض ولا يكون بين الناس غير رأيه فيأبى، لأن لكل مجتهدي مصر من أمصار المسلمين رأياً أخذوه عن منبع الشريعة، وحرية الرأي أساس فهم عمومية الدين، وهيمنته على سائر الأديان،

وصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، وأنه لا حاجة معها إلى قانون آخر. قال العلامة ابن القيم : «ومن له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالاتها، وأنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذي يفصل بين الخلائق، وأنه لاعدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، وعرف أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها مواضعها، وحسن فهمه فيها، لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة»[٩٩].

وإطلاق كلمة الحرية بلا قيود أو حدود في أي دستور أو إعلان أو اتفاقية يجعل المستكبرين يتخذونها مركباً للتعدي على مبادئ الأخلاق والأدب والسطو على الحدود والحقوق فلا تتوافق الأفعال مع المبادئ وتتناقض النظرية مع تطبيق الحقوق، وكان من البداهة بالمكان الأول أننا لا نعني بحرية الرأي خصوصاً في الشرع الإسلامي ما يفهم منه كلمة (الفوضى) حتى يباح لكل متعلم فضلاً عن شبه المتعلم أن يقول في الشريعة الإسلامية مثلاً أو في غيرها برأيه، وإنما نعنى أن العالم الثقة إذا فهم الشريعة فهماً وساق بين يديه دليله، فلا سبيل عليه، ولا تحجير على عقله. إذاً فحرية الرأي في الإسلام أمر مشروع ومباح ولكنه لا يعني الفوضى والارتجالية والخروج على الحدود باسم الحرية فتلك ليست حرية وإنما فوضى وهمجية، وهو منهج بعض المؤسسات التعليمية والسياسية في الغرب والشرق بل هو مسلك وسائل الإعلام والاتصال ومصادر المعلومات اليهودية والصهيونية ومن سار في ركابها بتقليد أعمى غير بصير، فهل يستوي الأعمى والبصير؟ وهل تستوي الظلمات والنور؟ وحرية الرأي في الإسلام فيه الالتزام بالموضوعية والعلمية في عرض الآراء ونقل الشواهد والإشارة إلى الاقتباسات، وقد سبق المسلمون إلى ذلك المنهج والأسلوب في ضرورة دقة النقل والقول كما يمثله علم مصطلح الحديث وإمامه الأول ابن الصلاح، ذلك العلم الذي يعتمد على الرواية والدراية. والدين الإسلامي وهو أقوم نظام عرفته الإنسانية، وأسمى شريعة جاء بها نبي مرسل ماكان

له أن يعطي الناس حرية مطلقة في الأقوال، ولو أنه أعطاهم حرية واسعة في هذا الجانب، لأن مصلحة الجماعة دائماً مقدمة عنده على مصلحة الفرد ، يقول مصطفى صادق الرفاعي : « بعض الحرية في التقييد وبعضها في السلب ، وإذا تعارضت منفعة الفرد في إطلاق الحرية، ومنفعة الأمة في حدها أو سلبها وجب نزع (ملكية) هذه الحرية، ولو على الوجه الذي تؤخذ به دور الناس لتطريق شارع »[١٠٠]، وقد ضرب الإسلام أحسن مثل للحرية التي منحها لأتباعه بعيداً عن الفوضى التي تهدد مصلحة الجماعة والنظام العام والصحة العامة فبين أن مصلحة الجماعة، أولى بالرعاية، وأحق بالاعتبار ، قال ﷺ : **« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استسقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا : لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»**[١٠١]، فلا بد إذاً من الأخذ على اليد حين يكون استعمال الحرية مهلكاً للجميع، والأخذ على اليد يكون من أصحاب الحق الذين يحلون الحلال ويحرمون الحرام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، (بمثل من يركبون أعلى السفينة) والحديث فيه إرشاد القائمين على حدود الله أن يأخذوا على أيدي المعتدين عليها، وألا يسمحوا للفاحشة أن تشيع فيهم ولا يأذنوا للفساد أن يستشري بينهم، فإنهم إن لم يقوموا بما افترض الله عليهم من المحافظة على تعاليمه وألقوا حبل العابثين على غواربهم ، وتركوهم يخوضون الباطل خوضاً عمهم الله بعذابه وعقابه[١٠٢]، بهذه المبادئ الإسلامية والإنسانية عن حرية التعبير وحرية القول سبق الإسلام كثيراً من الصكوك والمواثيق الحقوقية الدولية التي تؤكد على التزام ضوابط التعبير في الرأي وتداول المعلومات مثلما جاء في الاتفاقية الخاصة بحرية الإعلام والحق الدولي في التصحيح التي عرضتها الجمعية العمومية بقرارها ٦٣٠ د ـ ٧ في ١٩٥٢/١٢/١٦م ، وجاء في ديباجة الاتفاقية ضرورة

اعتماد التدابير التي تهدف إلى مكافحة بث المعلومات الكاذبة والمحرفة التي من شأنها أن تلحق الأذى بودية العلاقات بين الدول .

وحرية القول في الإسلام تقوم على مبدئه العام لا يتركها للناس يقولونها بحرية مطلقة، ما يجوز منها وما لايجوز، بل حد لها حدوداً وشرع لها ضوابط فنهى عن أنواع منها، وتوعد عليها، وبعض وعيده يشير إلى العقاب الأخروي فقط وبعضه يتضمن العقاب الدنيوي والأخروي، ومن الأخروي كما في نهيه عن اللغو من القول وعن ترديد الإفك الذي يرمي به بعض الناس بعضاً، قال تعالى : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[١٠٣]، قال رسول الله ﷺ : **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**[١٠٤]، فهل الغيبة والنميمة ونقل الأخبار الكاذبة هي من حرية الرأي؟ أم أنها من فساد حياة الناس وانتهاك حقوق الإنسان، أليس ما تبثه بعض وسائل الإعلام والاتصال عن الإسلام والمسلمين فيه افتراء وكذب، أهذا من حرية الرأي والتعبير؟ أم أنه من الزور والبهتان مما لا ترضاه الفطر السليمة والعقول الحكيمة فضلاً عن مبادئ حقوق الإنسان، عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله أي المسلمين أفضل؟ قال : **«من سلم المسلمون من لسانه ويده»**[١٠٥]، وكم أدت الآراء الكاذبة إلى عدم سلامة الألسن، وبالتالي دفع ذلك إلى عدم سلامة اليد فكانت الطامة الكبرى وكانت الحرب. وهكذا تفعل بعض وسائل الإعلام للوقيعة بين الناس وشحن صدور الشعوب بعضها على بعض، خصوصاً شحن الصدور على المسلمين ظلماً وعدواناً، روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : **«إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»**[١٠٦]، وعنه رضي الله عنه النبي ﷺ قال : **« إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد**

ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم »[١٠٧].

والوعيد والعقاب مآل الذي يطلق لنفسه العنان لحرية القول والرأي في الدنيا والآخرة ومنها إذاعة قالة السوء عن الناس، وإشاعة الأكاذيب التي تضر بجماعتهم، أو تؤثر على حقوقهم وقد جاء في هذا قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إلا قَلِيلاً﴾[١٠٨]، والمرجفون هم الذين يروجون الأخبار والأقوال ويدلسون الأقوال ويشيعون الأكاذيب بين الناس مما يسيء إلى حقوق الإنسان ويحرمهم التمييز بين الحق والباطل. بسبب الهالة الإعلامية، وتدفق صورة الكذب في ثوب الصدق بما يخدع الإنسان ويُعمي عنه الحق ومعرفة الحقيقة، وهذه المبادئ الإسلامية في لزوم الصدق وترك التثبيط والإرجاف باسم حرية الرأي يناقض الحفاظ على حقوق الناس كما تمثله المادة التاسعة عشرة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تنص على أن : «لكل شخص حق التمتع بحرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين، بأية وسيلة ودونما اعتبار للحدود»، هذه المادة من مواد الإعلان العالمي لحقوق الناس إذا أخذت على إطلاقها، ولم ينظر إليها بالاعتبار القانوني والشرعي لحقوق الناس قد يساء فهمها واستعمالها، مما يجعل البعض يأتي بما يناقضها، وعلى الأخص مسألة إشاعة أسرار الناس والتجسس عليهم والقول دونما اعتبار للحدود والحقوق، لأن في ذلك تعد على كرامة الناس وخصوصياتهم، فأي حقوق تحفظ للناس والحال هذه، لأن الإرجاف بعقائد الناس ومقدساتهم يوقع البلبلة في النفوس، ولا وجه لما يقال أن حرية الرأي نور ولا يخاف النور إلا الضعفاء لأن ذلك حق يراد به باطل، فليس كل إنسان يستطيع أن يميِّز الخبيث من الطيب[١٠٩].

هكذا يتضح أن الإسلام قد قرر مبدأ حرية الرأي في أكمل صورة وأمثل منهج، واتخذه دعامة لجميع ما سنه من نظم لعلاقات الأفراد بربهم وعلاقاتهم بعضهم

ببعض وعلاقاتهم بأولي الأمر، وطبقه في جميع النواحي التي تقتضي الكرامة الإنسانية أن يطبق في شؤونها وتحفظ حقوقها، فطبقه فيما يتعلق بالشؤون الدينية، وطبقه فيما يتعلق بشؤون التفكير العلمي، وطبقه فيما يتعلق بشؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد، وأقامه في كل ناحية من النواحي على قواعد واضحة متينة تكفل حمايته من العبث والانحراف وتتيح له تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من خير للإنسان ومجتمعه، ووصل به في كل ناحية منها إلى شأو رفيع لم تصل إلى مثله أية شريعة أخرى من شرائع العالم قديمة وحديثة، إن بعض المجتمعات التي تدعي حرية الرأي إنما هي تقيده بقيد المصلحة الخاصة وليس بقيد المصلحة العامة قيد النفع العام والصحة العامة والنظام العام، إنه تقييد لتحقيق أهداف محددة ورغبات معينة وأهواء خاصة هذا ما كشف عنه نعوم تشومسكي عندما قال : «فيما يلي الملاحظة الثانية التي تتعلق بتجربتي الشخصية، تطلب مني الصحافة والراديو والتلفزيون في كندا وأوروبا الغربية واليابان وأمريكا اللاتينية وأستراليا، تماماً كما تطلب من غيري ممن قد ساهموا في الكتابة والأعمال المعارضة لسياسة الدولة، أن أعلق على الشؤون المعاصرة والمسائل السياسية، لكن هذا لم يحصل قط تقريباً في الولايات المتحدة، إذ ينحصر التلعيق في الولايات المتحدة بالخبراء الأخصائيين الذين نادراً ما ينحرفون عن نطاق إيدولوجي ضيق جداً، وكما ورد في تعليق صائب لهنري كيسنجر : في عصرنا هذا الذي هو «عصر الخبير» نجد أن للخبير دائرته الانتخابية وناخبيه ، ونقصد بهم أولئك الذين لهم مصالح خاصة ذاتية في الآراء المشتركة، وعليه أن يحدِّد ويوصِّف إجماع هذه الدائرة على أعلى مستوى، إذ بفضل ذلك أصبح هو خبيراً. وتملك المهن الأكاديمية وسائل عديدة لضمان بقاء الخبرة المهنية ملتزمة بـ «المسؤولية»، رغم أن نظام الضبط هذا قد تعرض جزئياً للخطر خلال الستينيات. وبما أن وسائل الإعلام تخضع فعلياً دون أي سؤال إلى دين الخبرة في الولايات المتحدة، ولعل مرد ذلك يرجع جزئياً إلى سذاجتها، فهناك

احتمال ضئيل بإطلاق تحليلات منشقة، وإذا تم ذلك، تُصنف هذه التحليلات في إطار «الفكر المنشق» وليس التحليل السياسي الصارم النزيه، وهذا مثال آخر على «الاستثناء الأمريكي» داخل عالم الديمقراطيات الصناعية»[١١٠]، ويستطرد تشومسكي ليوضح حقيقة حرية الرأي ضمن مفاهيم حقوق الإنسان فيقول : «إذا عدنا إلى قول شليسنغر الذي يعتبر فيه تقرير المصير وحقوق الإنسان على أنها المبادئ الموجهة للسياسة الخارجية الأمريكية ونظرنا فيه بجد، فسوف نتوصل إلى تقويم جد ساخر لحملة حقوق الإنسان. فإذا كان تقرير المصير هو المثال الموجّه في فيتنام وتشيلي وغواتمالا وجمهورية الدومينكان، والكونغو وإيران فسوف تصبح حقوق الإنسان هي المثال المُوجّه من الآن فصاعداً. وباختصار، أن حملة حقوق الإنسان هي أداة استحدثت ليستخدمها الدعاويون لكسب الدعم الشعبي إزاء التدخل المضاد للثورة»[١١١]. ولما كان أسمى مظهر لمبدأ حرية الرأي للإنسان هو اختيار العقيدة والتعبير عنها، فإن الإسلام لم يكره أحداً على اختيار الدين الإسلامي بل لكل إنسان الحق في اختيار الدين الذي يريد وإن كان الصواب هو اختيار دين الإسلام خاتمة الرسالات السماوية كما سبق وأن أوضحنا في فصل سابق عند حديثنا عن التمييز الديني باعتباره أحد نواقض الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ثم إن للإنسان الحق الكامل في بيان رأيه من خلال الجدال والحوار بالتي هي أحسن وعرض قناعاته بما يدين به الله والدليل الذي يؤيد ما يذهب إليه دون إكراه أحد على قبوله إذا كان الأمر خلافياً لا صلة له بثوابت الدين والحقوق والآداب والأخلاق ، وهذا ما سنتحدث عنه في المبحث التالي عن مفاهيم ومبادئ الحوار والجدال كما جاءت في كتاب: (أصول الحوار وآدابه في الإسلام) لصالح بن عبدالله الحميد وغيره من الكتب بشيء من التصرف .

٣ ـ حرية الرأي: الحوار والجدال

الحوار : من المحاورة، وهي المراجعة في الكلام، والجدال : من جَدَلَ الحبل إذا

فَتَلَه؛ وهو مستعمل في الأصل لمن خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، ثم استعمل في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها[١١٢]، والحوار والجدال ذو دلالة واحدة، وقد اجتمع اللفظان في قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[١١٣]. ويقصد بالحوار والجدال مما هو معروف لدى كثير من الناس ما يكون من مناقشة بين طرفين أو عدة أطراف، بهدف تصحيح كلام، وإظهار برهان، وإثبات حق، ودفع شبهة، وردُّ الفاسد من القول والرأي، ويستخدم في الجدال والحوار بعض الوسائل والطرق المنطقية والقياسات الجدليَّة من المقدمات والمسلمات، مما هو مبسوط في كتب المنطق وعلم الكلام وآداب البحث والمناظرة وأصول الفقه. والغاية من الحوار بين أطرافه المتحاورة العمل على معرفة الحقيقة والتوصل إليها، ليكشف كل طرف ما خفي على صاحبه منها، والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق، يقول الحافظ الذهبي : «إنما وضعت المناظرة لكشف الحق، إفادة العالم الأذكى العلم لم دونه، وتنبيه الأغفل الأضعف»[١١٤].

والخلاف واقع بين الناس في مختلف الأعصار والأمصار، وهو سنة الله في خلقه، فهم مختلفون في ألوانهم وألسنتهم وطباعهم ومدركاتهم ومعارفهم وعقولهم، وكل ذلك آية من آيات الله نبه القرآن الكريم إليها في قول الله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[١١٥]، وهذا الاختلاف الظاهري دالٌّ على الاختلاف في الآراء والاتجاهات والأعراض، وكتاب الله العزيز يقرر هذا في غير ما آية، قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[١١٦]، يقول الفخر الرازي : والمراد اختلاف الناس في الأديان والأخلاق والأفعال، ومن معنى الآية لو شاء الله جعل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة، لا رأي لهم فيه ولا اختيار ، وإذن لما كانوا هذا النوع من الخلق المسمى البشر بل لكانوا في

حياتهم الاجتماعية كالنحل أو كالنمل، ولكانوا في الروح كالملائكة، مفطورين على اعتقاد الحق والطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يقع بينهم اختلاف ولا تنازع، ولكن الله خلقهم بمقتضى حكمته كاسبين للعلم لا مُلهمين، عاملين بالاختيار وترجي بعض الممكنات المتعارضات على بعض، لا مجبورين ولا مضطرين. وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكسب العلم واختلاف الاختيار»[١١٧]. وعلى الرغم من حقيقة وجود هذا التباين بين الناس، في عقولهم ومدركاتهم وقابليتهم للاختلاف، إلا أن الله وضع للحق معالم، وجعل على الصراط المستقيم منائر، قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾[١١٨]، وذلك أن النفوس إذا تجردت من أهوائها، وجدّت في تلمس الحق فإنها مهدية إليه، بل إن في فطرتها ما يهديها، وتأمل ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[١١٩].

ومن آداب الحوار التمسك بأدب الكلام، وتجنب منهج التحدي والإقحام، وإن من أهم ما يتوجه إليه المحاور في حواره التزام الحُسنى في القول والمجادلة، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١٢٠]، وقال جل شأنه: ﴿وجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١٢١]، وقال عز وجل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[١٢٢]، ومن لطائف التوجيهات الإلهية لنبينا محمد ﷺ في هذا الباب الانصراف عن التعنيف في الرد على أهل الباطل، حيث قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[١٢٤]، مع أن بطلانهم ظاهر، وحجتهم داحضة، ويلحق بهذا الأصل في الحوار تجنب أسلوب التحدي والتعسف في الحديث، وتعمد إيقاع الخصم في الإحراج، ولو كانت الحجة بينة والدليل دامغاً، فإن كسب القلوب مقدم على كسب المواقف. وقد تفحم الخصم ولكنك لا تقنعه،

وقد تسكته بحجة ولكنك لا تكسب تسليمه وإذعانه، وأسلوب التحدي يمنع التسليم، ولو وجدت القناعة العقلية. والحرص على القلوب واستلال السخائم أهم وأولى عند المنصف العاقل من استكثار الأعداء واستكفاء الإناء. وإنك لتعلم أن إغلاظ القول ورفع الصوت وانتفاخ الأوداج، لا يولّد إلا غيظاً وحقداً وحنقاً. ومن أجل هذا فليحرص المحاور ألا يرفع صوته أكثر من الحاجة فهذا رعونة وإيذاءٌ للنفس وللغير، ورفع الصوت لا يقوّي حجة ولا يجلب دليلاً ولا يقيم برهاناً، بل إن صاحب الصوت العالي لم يعل صوته ـ في الغالب ـ إلا لضعف حجته وقلة بضاعته، فيستر عجزه بالصراخ ويواري ضعفه بالعويل. وهدوء الصوت عنوان العقل والاتزان، والفكر المنظم والنقد الموضوعي، والثقة الواثقة. على أن الإنسان قد يحتاج إلى التغيير من نبرات صوته حسب استدعاء المقام ونوع الأسلوب، لينسجم الصوت مع المقام والأسلوب، استفهامياً كان، أو تقريرياً أو إنكارياً أو تعجيباً، أو غير ذلك، مما يدفع الملل والسآمة، ويعين على إيصال الأفكار، ويجدد التنبيه لدى المشاركين والمتابعين[١٢٥]، على أن هناك بعض الحالات الاستثنائية التي يسوغ فيها اللجوء إلى الإفحام وإسكات الطرف الآخر، وذلك فيما إذا استطال وتجاوز الحد، وطغى وظلم وعادى الحق، وكابر مكابرة قال تعالى: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾[١٢٦]. ففي حالات الظلم والبغي والتجاوز، قد يسمح بالهجوم الحاد المركز على الخصم وإحراجه، وتسفيه رأيه؛ لأنه يمثل الباطل، وحسن أن يرى الناس الباطل مهزوماً مدحوراً، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[١٢٧].

وإذا كان من الحق ألا يمنع صاحب الحق عن حقه، فمن الحق ألا يعطى هذا الحق لمن لا يستحقه، كما أن من الحكمة والعقل والأدب في الإنسان ألا يعترض على ما ليس له أهلاً، ولا يدخل فيما ليس هو فيه كفؤاً. فمن الخطأ أن يتصدى

للدفاع عن الحق من كان على الباطل، ومن الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يعرف الحق. ومن الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يجيد الدفاع عن الحق. ومن الخطأ أن يتصدى للدفاع عن الحق من لا يدرك مسالك الباطل.

إذن، فليس كل أحد مؤهلاً للدخول في حوار صحي صحيح يؤتي ثماراً يانعة ونتائج طيبة. والذي يجمع لك كل ذلك: (العلم)؛ فلابد من التأهيل العلمي للمحاور، ويقصد بذلك التأهيل العلمي المختص[١٢٨].

إن الجاهل بالشيء ليس كفؤاً للعالم به، ومن لا يعلم لا يجوز له أن يجادل من يعلم، وقد قرر هذه الحقيقة نبي الله إبراهيم عليه السلام في محاجته لأبيه مما ذكره القرآن الكريم عنه في قوله تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾[١٢٩]. وإن من البلاء أن يقوم غير مختص ليعترض على مختص فيخطئه ويغلطه. وإن من حق من لا يعلم أن يسأل ويتفهم، لا أن يعترض ويجادل بغير علم، وقد قال موسى عليه السلام للعبد الصالح كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[١٣٠]، فالمستحسن من غير المختص؛ أن يسأل ويستفسر، ويفكر ويتعلم، ويتتلمذ ويقف موقف موسى مع العبد الصالح. وكثير من الحوارات غير المثمرة مردها إلى عدم التكافؤ بين المتحاورين، ولقد قال الشافعي رحمه الله : «ما جادلت عالماً إلا وغلبته، وما جادلني جاهل إلا غلبني»[١٣١]، وهذا التهكم من الشافعي رحمه الله يشير إلى الجدال العقيم، الذي يجري بين غير المتكافئين.

ومن المهم في هذا الأصل إدراك أن الرأي الفكري نسبيٌّ الدلالة على الصواب أو الخطأ، والذي لا يجوز عليهم الخطأ هم الأنبياء عليهم السلام فيما يبلغون عن ربهم سبحانه وتعالى، وما عدا ذلك فيندرج تحت المقولة المشهورة: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي الآخر خطأ يحتمل الصواب» . وبناء عليه فليس من شرط

الحوار الناجح أن ينتهي أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر، فإن تحقق هذا واتفقا على رأي واحد فنعم المقصود وهو منتهى الغاية وإن لم يكن فالحوار ناجح إذا توصل المتحاوران بقناعة إلى قبول كلٍ من منهجيهما ؛ يسوغ لكل واحد منهما التمسك به ما دام أنه في دائرة الخلاف السائغ ، وما تقدم من حديث عن غاية الحوار يزيد هذا الأصل إيضاحاً ، وفي تقرير ذلك يقول ابن قدامة رحمه الله : «وكان بعضهم يعذر كل من خالفه في المسائل الاجتهادية، ولا يكلفه أن يوافقه فهمه»[١٣٢]. ولكن يكون الحوار فاشلاً إذا انتهى إلى نزاع وقطيعة، وتدابر ومكايدة وتجهيل وتخطئة، ويكون الحوار ناجحاً إذا بني على الرضا والقبول بالنتائج التي يتوصل إليها المتحاورون، والالتزام الجاد بها وبما يترتب عليها. وإذا لم يتحقق هذا الأصل كانت المناظرة ضرباً من العبث الذي يتنزّه عنه العقلاء، يقول ابن عقيل : «وليقبل كل واحد منهما من صاحبه الحجة؛ فإنه أنبل لقدره، وأعون على إدراك الحق وسلوك سبيل الصدق» ، وقال الشافعي رضي الله عنه : « ما ناظرت أحداً فقبل مني الحجّة إلا عظم في عيني، ولا ردّها إلا سقط في عيني»[١٣٣].

ويمكننا حصر قواعد الحوار وحرية الرأي في الإسلام فيما يلي :

١ــ بالتزام الأدب في المناقشة وإبداء الرأي، وتقدير كلام الآخرين من غير تسرع في الحكم.

٢ ــ عدم المجادلة التي تؤدي إلى العداوة والبغضاء، قال تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[١٣٤]، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١٣٥].

وأما القيود والضوابط لحرية الرأي والتعبير فهي :

١ ــ يجب أن لا تؤدي حرية الرأي إلى الفتنة وتفرقة المسلمين.

٢ ــ يجب أن لا تؤدي هذه الحرية إلى نشر الإلحاد أو الأهواء أو البدع بين المسلمين.

٣ ــ يجب أن لا تؤدي هذه الحرية إلى الإسفاف وفحش القول، أو الخوض في

أعراض الناس وأسرارهم، لقول الله تعالى : ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾[١٣٦].

كل ما ذكرناه عن حرية الرأي والتعبير والفكر يدل على أن الشريعة الإسلامية تجمع بين الحرية والتقييد، والأصل هي حرية الرأي، والتقيد بما لا يمس الأخلاق والآداب والنظام العام والأمن العام والصحة العامة ، ولا تستقيم حرية الرأي في الإسلام إلا إذا قامت على النظر العلمي والتفكير العقلي الموضوعي في إدراك السائل وكلامه ، وحرية الرأي أو التعبير من منظور إسلامي لابد أن تؤدي إلى نفع الأفراد والأمم، وتنمي الإخاء والحب والاحترام بينهم، وتقضي على النعرات الشخصية والطائفية [١٣٧] .

ومن أهم المبادئ الإسلامية في حرية الرأي هو اختيار المعتقد والدين والتعبير عنه، والإسلام في هذا الجانب قرر أنه لا يصح أن يكره أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام، يقول الله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[١٣٨]، ويقول جل شأنه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[١٣٩]، والاستفهام في هذه الآية كما لا يخفى استفهام إنكاري، أي لا يجوز أن تكره أحداً على ترك دينه واعتناق الإسلام، ويقول تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[١٤٠]، ويقول عز وجل : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾[١٤١]، ولا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم من آيات من هذا القبيل إلا وتقرر أنه لا يصح أن يكره أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام، وكذا الكثير من الأحاديث النبوية في هذا الشأن التي أوردنا عدداً كبيراً منها عند حديثنا عن التمييز الديني، وعلى هذا المبدأ القويم سار الخلفاء، وسار المسلمون والأمراء في علاقتهم مع أهل الأديان الأخرى فكانوا يبيحون لأهل البلد الذي يفتحونه أن يبقوا على دينهم، وكانوا يحترمون شعائرهم وعقائدهم، وفي

هذا يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في معاهدته مع أهل بيت المقدس بعد فتحه له : « **هذا ما أعطى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم، لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم**»[١٤٢]، ويقول عمرو بن العاص كذلك في معاهدته مع أهل مصر عقب فتحه لها : «**هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان ، أعطاهم أمانًا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وملتهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص**»[١٤٣]، وهذه كلها أدلة قاطعة على هذا المبدأ الذي قررته الشريعة الإسلامية بأن لا يكره أحداً على ترك دينه واعتناق الإسلام واتباع رأي لا يرغبه فكل امرئ بما كسب رهين.

ثم يأتي المبدأ الثاني من المبادئ التي أوجبها الإسلام في الفكر والتعبير وهو حرية المناقشات الدينية، لذلك يوجه الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يعتمدوا في مناقشاتهم الدينية مع أهل الأديان الأخرى على المنطق والدليل، يقول الله عز وجل مخاطباً رسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[١٤٤]، ويقول جلّ وعلا مخاطباً المسلمين : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[١٤٥]، ويقول سبحانه وتعالى مخاطباً الكفار: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[١٤٦]، ويقول تعالى : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾[١٤٧]، ولا يكتفي القرآن الكريم بذلك بل إنه ليغري الكفار بالمناقشة والإتيان بالدليل على صحة دينهم فيتظاهر جدلاً بأن لا يقطع بأنه على حق وأنهم على باطل، فيقول تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[١٤٨]، أي أن أحدنا لا بد أن يكون على حق والآخر على ضلال مبين ، فتعالوا بنا نتناقش ونقرع الحجة بالحجة ليتبين أينا على حق.

هذا منتهى ما يمكن أن يتصور في حرية المناقشات الدينية وما دونها من باب أولى في مسألة حرية الرأي المتعلقة بأمور الدنيا، فالإسلام ييسر لهم سبل هذه

المناقشة ويغريهم على إقامة الدليل على صحة دينهم إن إستطاعوا إلى ذلك سبيلاً. كما أن القرآن سن في هذا الصدد الاجتهاد في فروع الشريعة الإسلامية أي في شؤون الفقه لكل قادر عليه وهو التمكن من الكتاب والسنة واللغة العربية وقواعد الاستنباط، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾[١٤٩]، وعلى هذا المبدأ سار الصحابة والتابعون، فكان كل قادر منهم على الاجتهاد في فروع الشريعة يجتهد ويعمل باجتهاده، ولكنه مع ذلك كان يحترم اجتهاد الآخرين مادام هذا الاجتهاد مبنيًا على استنباط صحيح من الكتاب والسنة، بل كان كثير منهم يرجع عن رأيه ويأخذ برأي غيره إذا تبين له صحة رأي غيره وبطلان رأيه . هذا هو المبدأ الذي قرره الإسلام حفاظاً على حرية الرأي لا في شؤون العقيدة فحسب، بل كذلك في شؤون الشريعة وفي شؤون الفروع نفسها، سواء أكانت هذه الفروع متعلقة بالعبادات أم متعلقة بالمعاملات أم بالاجتماع والاقتصاد والسياسية والعلوم ...الخ.

والإسلام كما في آيات القرآن الكريم يوضح المنهج الذي رضيه الله لعباده في حرية الرأي، فمن يوم بدأ نوح ـ عليه السلام ـ دعوته إلى التوحيد كان يطلب جواً حراً في الرأي والفكر، فما طلب أكثر من هذا، وما حاول إكراه أحد على ما يدعو إليه عندما دعا إلى الله، كما في قوله تعالى : ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا من قَوْمه مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا من فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عنده فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[١٥٠]، ويستبعد أن يكون الضغط على الضمائر وإكراه الناس على العقائد طريق النبوة أو عمل الوحي أو وجهة المرسلين، وإذا كان هذا منهج نوح عليه السلام فإننا نجد شعيباً عليه السلام بعده يقول لقومه كما حكى القرآن ذلك في قوله تعالى : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٥١]، وفساد حياة

الناس من وجهة الآراء الباطلة والأقوال الفاسدة والمزاعم الكاذبة والدعاءات المغرضة وكافة أنواع الفرى مما تبثه كثير من وسائل الإعلام والاتصال في عالمنا المعاصر من اليهود ومن شايعهم مما دأب عليه الأجداد ويزاوله الأحفاد في حاضرنا المشاهد؛ يُخَوِّفُون المؤمنون ويثيرون الإرهاب والرعب في القلوب، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[١٥٢].

إن الإسلام لا يفرض على أحد قسراً ما عنده، بل هو يقول لكلٍّ رأيه، قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[١٥٣]، ويقول تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ .[١٥٤] فهذا المنهج منهج الحرية الذي يسمح للرأي أن يظهر في حدوده المشروعة وحفظ حق كل ذي حق.

إن الحق إذا لم يستطع أن يسير وأن يعرض نفسه وأن يثبت جدارته بالبقاء فخير له أن يموت وأن يتوارى، لأن الحق الذي يعجز عن ذكر أدلته وعن التسلل إلى قلوب الناس لا في جنح الليل بل في وضح النهار لا يكون حقاً، ولهذا فتاريخ التدين يثبت أنه لا ينتعش إلا في ظل الحرية، وتاريخ التدين يثبت أن الإلحاد لا يبقى إلا بالعصا وإلا بالسلاح الذي يحميه والدعوة إلى الكفر والإلحاد والفكر الباطل من أهم النواقض الحقوقية خصوصاً ما جاء في المادة التاسعة عشرة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تفضي بعدم مضايقة الناس في إبداء آرائهم والتعبير عنها، وعدم مصادرتها بعرض آراء مسبقة الصنع كتلك التي أوجدها اليهود والصهاينة في الشيوعية والاشتراكية، وللنظر إلى مصادرة الرأي وحريته في بعض الدول، فكثير من الإعلاميين والمفكرين الأحرار في بعض الدول الغربية لا يستطيعون الحديث عما تقوم به إسرائيل في فلسطين من جرائم لما يجده اليهود من حماية

إعلامية في تلك الدول، يقول نعوم تشومسكي: «إن الولايات المتحدة الأمريكية تحقق درجة غير عادية من حيث عدم وجود قيود على حرية التعبير منها، كما أنها تحقق أيضاً درجة متفردة من حيث اتساع وفعالية الوسائل التي تستخدمها لتقييد حرية التفكير»[١٥٥] ، ومن جرا على مثل ذلك قتل أو أوذي أو فصل من عمله، وندلل على ذلك ما عاناه الإعلاميون من ضرب وإذلال وقتل خلال أحداث الهجمات الإسرائيلية على المدن والقرى الفلسطينية عام ٢٠٠٢م، خصوصاً بعد مذبحة جنين، وما تعرض له بعض الإعلاميين من مجموعة صحافيون بلا حدود الذين منعوا من تصوير المواقع وقول الحق مثلاً بمثل عندما تعسفت إسرائيل ومنعت دخول لجنة لتقصي الحقائق في تلك المذبحة وغيرها من المذابح، أليس ذلك كله من نواقض حقوق الإنسان في مصادرة حرية الرأي؟.

والإسلام عندما احترم حرية الرأي في الحياة العملية بنى ذلك على أن الحق ليس لشخص ما أو لقوة ما، وبالتالي فإن النبي محمداً ﷺ يسقط حق مناقشته عن رأيه في شؤون الدنيا إذ بدا الحق في الجانب الآخر مما هو داخل في مجالات الاجتهاد التي لا وحي فيها مع بقاء المحبة والتصديق له صلى الله عليه وسلم الذي قال في هذا الشأن : «**إن كان شيئاً من أمر دنياكم فشأنكم به، وإن كان من أمور دينكم فإلي**»[١٥٦]، أي ما كان الرأي فيه متعلقاً بمصالح الدنيا في شؤون الزراعة والصناعة والصحة .. الخ من تنظيمات الحياة ونحوها فالرأي متاح للجميع وذاك دون أحكام الدين التوقيفية وأصوله الثابتة، وهذا دلالة قوله ﷺ : «**فإنما أنا بشر مثلكم، وأن الظن يخطيء ويصيب**»[١٥٧]، أي أن رأي الإنسان حمّال أوجه قد يكون صواباً وقد يكون خطأً وهذا لا يمنع حرية الرأي والقول، فإذا كان ذلك شأن رسول الله عليه الصلاة والسلام فمن دونه من باب أولى بألا تكون لهم عصمة أو قداسة، وكان أدرى الناس بهذه الحقيقة البشرية أو بهذه الحقيقة الإنسانية الخلفاء الراشدين، فعندما ولوا الأمر قال كل منهم: «**إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن**

رأيتم خيراً فأعينوني وإن رأيتم شراً فقوموني»[١٥٨]، فأى خليفة يتولى أمر المسلمين ما يحق له القول بأنه معصوم أو بأن له قداسة، فهو يخطئ ويصيب، وعلى الأمة أن تصحح له خطأه إذا أخطأ ولا تجبن عن ذلك، فقد روى أن رجلاً رأى من عمر بن الخطاب شيئاً فقال له: اتق الله فصاح أحد المتملقين : **« أتقول لأمير المؤمنين هذا؟، فقال عمر غاضباً : دعه يقلها، لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نسمعها»**[١٥٩]. ولذلك فولي أمر المسلمين يجب أن يرحب بكل من يقول الصواب ، وهذا سر كلمة عمر رضي الله عنه : **«رحم الله امْرِءًا أهدى إلي عيوبي»**[١٦٠]، وهو سر كلمة الإمام الشافعي رحمه الله في قوله : «ما جادلت أحداً إلا تمنيت أن يكون الحق في جانبه»[١٦١]، لماذا ؟ لأن الإمام الشافعي حسبه أن يكون أمام عالم لديه ثروة من المعرفة فهو لا ينقص قدره أن ينهزم في جدل، إنما هو يستفيد منه إذا كان الحق عند غيره لما يأتيه من علم جديد ما كان يعرفه، فهو يفرح بهذا الجديد الذي ينضم إلى علمه. و الكبار يعلمون أن الحق حيث يكون له حرمته، ومن ثم يسمعونه والحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها[١٦٢]، فإذا كان لا قداسة لجماعة ولا قداسة لفرد، فإنه ينبني على هذا أننا يجب ديناً وحقاً، أن نحق الحق وأن نبطل الباطل، وأننا إذا وجدنا خطأ فلا بد أن نصوبه وأن نعقب عليه بالحق الذي لابد منه، وهذا معنى الحديث الذي قاله رسول الله ﷺ: **« لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف فيها حقه من القوي غير متعتع»**.[١٦٣]

اعتبرالإسلام التناصح والتواصي بالحق واجب وأن المؤمن مرآة أخيه، اعتبر أن الإنسان لا يمكن أن يكون موصولاً بتعاليم هذا الدين صلة صحيحة إلا إذا كان حراً في رأيه يؤدي حق الله عليه في إحقاق الحق وإبطال الباطل، ويؤدي حق الناس بما أوجبه رب الناس، وربما وجدت ظروف تلقي بالرهبة في أفئدة الناس وتجعل الإنسان يبتلع الكلمة مع ريقه ولا يقولها، وفي مثل هذه الظروف نبه النبي عليه الصلاة والسلام إليها بقوله : **« ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه**

أو شهده فإنه لا يُقرِّب من أجل ولا يُبَاعِدْ من رزق، يقول بحق أو أن يذكر بعظيم»[١٦٤]، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله: **«لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال فلا يقول فيه، فيقال له يوم القيامة : ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا؟ فيقول مخافة الناس، فيقول : إياي أحق أن تخاف»**[١٦٥]، وقال ﷺ : **«ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه»**، قالوا : وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال : **« يتحمل من البلاء ما لا يطيق»**[١٦٦]. وقول الحق وعدم السكوت على الباطل وإبداء الرأي في حرية تامة له ضوابطه ولوازمه إذ لابد أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة وعلى بصيرة وهدى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. فكون الإنسان يصدع بالرأي ويؤدي ما عليه، هذا هو الإيمان الحقيقي، وإنما تنجح الأمم وتشق طريقها إلى المستقبل بثروتها من الرجال الذين يعيشون للحقيقة ولو تعبوا فيها، والحق مر، يقول أحمد شوقي :

إن الذي خلق الحقيقة علقما لم يل من أهل الحقيقة جيلا

فالحرية في الإسلام خير وشرف، وليست بالمفهوم الذي يراه المستكبرون ويعملون به لإثارة الفتن والأحقاد، وإشاعة الأكاذيب والزور، وللتآلي على الله وحقوقه وشرعه وحدوده، يقول جان جاك روسو: «الحرية هي رفع يد أجنبية عنك تحكم إرادتك»[١٦٧]، وهي بهذا المعنى واسعة المفهوم في الإسلام، وأعلى مقصد في الشريعة الإسلامية، هي بيان وجه الحق لا حرج على الناس في إعلانه، لأن النبي ﷺ يقول : **« لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن أساءوا أن أتجنب إسائتهم»**[١٦٨] .

بهذا المنهج الإسلامي يمكن أن نفرق بين الآراء المنحرفة التي يقصد بها إشاعة البلبلة أو الترويج لرذيلة أو لمذهب من المذاهب التي لا تتفق مع دين وتقاليد البلد ولا أخلاقها ولا عاداتها، وكل ما يقصد به وجه الشيطان وبين الآراء الصالحة المفيدة،

فالإسلام لا يقر حرية الرأي الضالة المنحرفة الفاسدة ولا يمنحها هذه الحرية إذا كانت على هذا الوجه، لأن الإسلام يتوخى فيما يدعو إليه الحق والخير، ويدعو الناس إلى كل ما فيه فضل وعدل، ومن ثم تجد أن حرية الرأي في قوله تعالى: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[١٦٩]، ويقول تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾[١٧٠] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[١٧١].

والشجاعة في إعلان الرأي محمودة، وقد نوه بها الإسلام في كثير من أحكامه، حتى لو يشهد الإنسان على نفسه وأهله ووالديه وأبناءه مما جاء في الآية السابقة من سورة النساء، وفي الأثر : «**وأن تعامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به**»، ويؤيد هذا الأثر الحديث الصحيح قوله ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[١٧٢] ، فعلى الإنسان أن يحب للآخرين صلاح القول والفعل بقسط وعدل، وماذا عند إنسان لا يملك الإعراب عن رأيه البناء؟ إن الرأي البصير المستنير وسيلة ضرورية في كل إصلاح، وقد أصاب المتنبي إذ قال:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول المحل الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفس الشجعان بلغت من العلياء كل مكان

والشجاعة مالم يعصمهما رأي ثاقب تدمر وتأتي على كل بناء صالح من قواعده، ولقد ربى الرسول ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم جميعاً على حرية الرأي وصراحة التعبير، وكان صلوات الله عليه وسلامه يفسح صدره لسماع الآراء والأقوال كما بمثل ما سمع من الرجل الذي قال له : «**اعدل فإنك لم تعدل**»[١٧٣]، ولعمر رضي الله عنه وهو يَرَى في أسارى بدر رأياً شجاعاً غير رأيه ﷺ ورأي أبي بكر رضي الله عنه، ولعمر رضي الله عنه مواقف كثيرة في شجاعة الرأي، وصدق

الله العظيم في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١٧٤] ، وبعد، فالإسلام يبين أن الحاجة إلى حرية الرأي للناس كحاجتهم إلى الغذاء والسلاح الذي يدفع به في صدور الأعداء بالدفاع عن الحقوق والحريات والمقدرات .. إلخ.

٤ ـ حرية الرأي : الابتداع في الدين

أوضحنا فيما سقناه من أدلة شرعية من القرآن الكريم وأقوال الرسول ﷺ ومواقف خلفاء المسلمين وأمرائهم وعلمائهم وفقهائهم بأنه ليس في الإسلام كهنوت ولا رجال دين يتوسطون بين العبد وربه، تلك حقيقة ثابتة مقررة في الدين الإسلامي، وهي خاصة من خصائص الإسلام ومزية من مزاياه تعلو بالتوحيد وإفراد الله بالعبادة، فالله ليس ثالث ثلاثة، ولا يُتصل به بواسطة أو وسيط أو نائب أو وكيل، فالإسلام تسع أحكامه كل ما يحتاجه الناس من شؤون وحقوق وواجبات؛ فما من أمر يَجدُّ في الحياة إلا وللإسلام حكم فيه، يعرفه أهل الخبرة من العلماء، ويعلنونه للناس، ولكل امرىء أن يجادلهم فيه ما دامت عنده أداة الفهم والعلم بالكتاب والسنة وأقوال العلماء بعيداً عن الهوى والابتداع، هذه حقيقة مقررة وثابتة.

ولكن المنحرفين من الناس أرادوا أن يتخذوا تلك الخاصية التي ميزت الإسلام طريقاً للابتداع فيه والتهجم عليه والعبث بحقائقه المقررة، والتخريج الباطل لأحكامه، من غير أن يكون عندهم علم بالكتاب والسنة وأقوال العلماء، تبعوا في ذلك المستشرقين وأدعياء العلم والعولمة والمنصرين والمستعمرين، لذلك نرى بين الحين والآخر رجالاً يتهجمون على الحقائق الإسلامية المقررة، ويخالفون ليعرفوا ويشتهروا، وليقال عنهم علماء مجددون محققون متنورون متطورون، وهم من أولئك الذين لا يريدون للإسلام علواً في الأرض، ولا للأحكام الشرعية استقراراً

بين الناس. فهناك من يفك عرى الإسلام عروة عروة، فيجيء إلى فريضة روحانية مقررة ويقول إنها ليست فرضاً، مخالفاً بذلك نص القرآن ونص الحديث وإجماع المسلمين أجمعين من زمن النبي الأمي محمد ﷺ إلى أيامنا الحاضرة، حتى ابتدع بدعته، وافترى فريته. ثم وجدنا أيضاً من يحاول هدم الصلاة عماد الدين، بل وجدنا من يدعوا إلى إهمال المساجد بيوت الله باسم التجديد، وباسم الاجتهاد، وباسم الحرية الفكرية . أهذا استعمال للحرية الفكرية التي منحها الإسلام؟ أم هي الفوضى الفكرية، يريدون بها هدم الإسلام لبنة لبنة، كما فعل كثير من أصحاب الأديان الذين يدَّعون حرية الرأي ففصلوا الدين عن الدولة والروح عن المادة، وفكك الأسرة وفرق المجتمع وأشاع الفواحش ما ظهر منها وما بطن من ربًا وزنًا وعلمانية وقمار وميسر واحتكار للأموال وحروب اقتصادية وسياسية. ودعوة إلى النظام الدولي الجديد في ظل العولمة. إلخ[١٧٥] .

فعلى المسلمين أن ينتبهوا جيداً، فحملات الاستهزاء بالدين وأهله، قد أخذت تزداد في وسائل الإعلام والاتصال والكتب الملحدة وفيها الدعوة إلى إبطال شعائر الإسلام وشرائعه. إن مثل هذه الأفكار تحمل الطعن في صميم الدين وتدس السم في الدسم. فهم ينعتون المسلمين والإسلام بالرجعية وكلما يدعو إليه الإسلام من عمل صالح نبيل، ويصفون بالتجديد والتمدن والتقدم كل ما دعا الإسلام تركه لما فيه من شبه وشهوة ومنكر من خلق ساقط أو عمل دنيء سافل قال الشاعر :

ومن كان الغراب له دليلاً يمر به على جيف الكلاب

وإبداء الرأي في الإسلام يعتبر من قبيل الحسبة وهي : (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وفيها المحافظة على الصحة العامة والنظام العام، قال النبي ﷺ : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** »[١٧٦]، وهو من قبيل فرض الكفاية الذي يجب أن يقوم به أحد

المسلمين فإن لم يقم به أحد أثم المسلمين جميعاً، لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس، وهذا مما يوضح التشديد في ممارسة حرية الرأي وأنها واجب وتكليف لازم وليست أمراً متروكاً لاختيار الإنسان. وقد بيّن الإمام الغزالي في كتابه : (إحياء علوم الدين) هذه المسألة في باب أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر فقال : « إن الجائز رُتَبتاً التعريف والوعظ وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان، فإن ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ويكون ما يتولد منه من المحظور أكثر، وأما التخشين في القول كقوله : يا ظالم لمن لا يخاف الله وما يجري مجراه، فذلك إن كان يحرك الفتنة التي يعدى شرها إلى غيره لم يجز، وإن كان لا يخاف على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه، فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة والتعرض لأنواع العذاب لعلمهم بأن ذلك شهادة»[١٧٧]، قال رسول الله ﷺ : **« سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه فقتله على ذلك»**[١٧٨]، وقال ﷺ : **« أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»**[١٧٩]. وروى الغزالي عن الأصمعي قال : «دخل عطاء بن أبي رباح من أئمة الفقهاء التابعين على عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين وهو جالس على سريره وحوله الأشراف من كل بطن وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على سريره وقعد بين يديه وقال له: ما حاجتك يا أبا محمد؟ فقال: «يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم. فقال له: أجل أفعل، ثم نهض وقام، فقال له عبد الملك : يا أبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت؟ فقال : مالي إلى مخلوق حاجة. ثم خرج فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف»[١٨٠]، وروى أيضاً أن عطاء بن أبي رباح دخل على الوليد أمير

المؤمنين وعنده عمر بن عبد العزيز ثم أقبل عليه عطاء يحدثه فكان مما حدثه به أن قال له : « بلغنا أن في جهنم وادياً يقال له هبهب أعده الله لكل إمام جار في حكمه، فصعق الوليد من قوله وكان جالساً فوقع على قفاه مغشياً عليه، فقال عمر لعطاء: قتلت أمير المؤمنين. فقبض عطاء على ذراع عمر بن عبد العزيز فغمزه غمزة شديدة وقال له : « يا عمر إن الأمر جد فجد، ثم قام عطاء فانصرف، فبلغنا عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال : مكثت سنة أجد ألم غمزته في ذراعي»[١٨١].

إن حرية التعبير والرأي المسموح بها في الإسلام هي الحرية المنضبطة، وأول ضوابط الحرية عدم جواز الاعتداء على المقدسات العقدية لأي إنسان، ولو كان فرداً واحداً ولو كانت عقيدته عقيدة فاسدة لأن الله تبارك وتعالى ينهانا عن العدوان، يقول تعالى:﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١٨٢]، ولذلك ينبغي على كل كاتب ومتكلم أن يراعي عقائد الناس ومقداستهم، وإلا فإنه يكون باغياً يجب رد بغيه لقوله تعالى: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾[١٨٣]، فالعدوان على عقائد الناس ومقدساتهم ظلم يجب على القادرين رده، وكذا الاعتداء على الأعراض والإساءة إلى الناس بالأقوال الباطلة والوشاية والنميمة فذلك كله ليس من حرية الرأي كما يرى في وسائل الإعلام في زماننا مما ترعاه اليهودية والنصرانية وتساندها قوى الضلال والشر والاستكبار، ويجري وراءها المضللون.

وتتميز الشريعة الإسلامية عن سائر الأديان والحضارات قديمها وحديثها في مبادئها وأصولها ومذاهبها، فالحقوق السياسية للإنسان عمادها البيعة والشورى. والحقوق الاقتصادية أن المال من الله ولكل إنسان ما كسب واكتسب، وليست تشريعاتها بالإقطاعية أو الرأسمالية أو الماركسية، فكان الإسلام حضارة أعلنت حقوق الإنسان، وأول حضارة حفظت حقوق غير المسلمين فضلاً عن حقوق المسلمين بصورة فريدة، وأول حضارة حررت الناس من العبودية والرق ومنحتهم

مبادئ الحرية والإخاء والمساواة وحرية القول والرأي، فهي نسيج فريد في مضمونه وشكله. وهذا ما يشير إليه قول الصحابي الجليل ربعي بن عامر ورفاقه رضي الله عنهم أجمعين عندما سألهم رستم القائد الفارسي عن سبب خروجهم لقتال الفرس فأجاب : « إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» (١٨٤)، ذلك العدل القائم على قيم الحق وحفظ الحقوق، القيم التي تحدثنا عنها في الجزء الأول من الموسوعة في شريعة الإسلام من عدم انتهاك حقوق الإنسان .

وعدل دين الإسلام في حرية الرأي نجدها في بعض آيات سورة الحجرات ونداءات المولى جل وعلا إلى ضوابط ذلك والالتزام به في قواعد الشريعة التي تحفظ لكل إنسان حقه ولا تظلمه، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (١٨٥)، يعلق الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ على الآية بقوله : «يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط، لئلا يحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبل المفسدين، ومن ها هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأنها إنما أمرنا بالتثبيت عند الخبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حيث بعثه رسول الله ﷺ على صدقات لبني المصطلق، قال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم بالصدقة، فرجع فقال : إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك، زاد قتادة وأنهم قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إليهم وأمره أن يثبت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونه فلما جاءوا أخبروا خالد بن الوليد رضي الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا آذانهم وصلاتهم.

فلما أصبحوا أتاهم خالد رضي الله عنه فرأى الذي يعجبه، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة»[١٨٦]. قال قتادة: فكان رسول الله ﷺ يقول: **«التثبت من الله والعجلة من الشيطان»**[١٨٧].

ونكرر ما سبق ذكره، فالواقع السياسي لكثير من دول العالم خصوصاً التي تعادي الإسلام والمسلمين تستخدم وسائل الإعلام وشبكات المعلومات (الانترنت) والحاسب الآلي والفضائيات التلفازية وغيرها لترويج الأقوال الكاذبة والافتراءات، وإلباس الباطل ثوب الحق لإثارة الفتن بين الأمم والشعوب في قضايا الاقتصاد والتجارة وقضايا الحدود البرية والبحرية وقضايا الانتفاع بمصادر المياه، وقضايا العلاقات السياسية وغيرها من الأمور. وإن عدم تقيد حرية الرأي بالنزاهة والصدق فيها دعم للباطل الذي يتناقض مع مبادئ حقوق الإنسان يتحدث نعوم شومسكي قائلاً : «إن الولايات المتحدة الأمريكية تحقق درجة غير عادية من حيث عدم وجود قيود على حرية التعبير فيها، كما أنها تحقق أيضاً درجة متفردة من حيث اتساع وفعالية الوسائل التي تستخدمها لتقييد حرية التفكير. وترتبط هاتان الظاهرتان ببعضهما بعضاً. فكلما تقلصت قدرة الدولة على استخدام العنف في الدفاع عن مصالح النخبة المسيطرة، ازدادت أهمية ابتكار أساليب، «لصناعة الموافقة أو هندسة الموافقة». وتتضح طرق «صناعة الموافقة» في استخدام شكل من اللغة يكون فيها للكلمات معان جيدة مخالفة لمعناها الأصلي. فعلى سبيل المثال، مصطلح «عملية السلام» بمعناه الذي تستخدمه وسائل الإعلام والمؤسسات البحثية في الولايات المتحدة، تشير إلى مقترحات السلام التي تقدمت بها الحكومة الأمريكية، وأن أي طرف لا يقبل بالمقترحات الأمريكية، فإنه في عرف وسائل الإعلام الغربية معاد للسلام، أو رافض للسلام. ورغم أن مقترحات السلام الأمريكية تنكر على الشعب الفلسطيني الحق في تقرير المصير، ورغم أن للعرب وللفلسطينيين مقترحات سلام، تصر وسائل الإعلام على نعتهم بالرفض لعملية السلام»[١٨٨]، فوسائل الإعلام

مهما بثت من أخبار أو أقوال فعلى المسلمين أو غير المسلمين التأكد من أقوال الزور والبهتان لتحقيق سبل التعاون والتعايش بينهم وأن يوظفوا هذه الآية الكريمة ويستخدموها الاستخدام الأمثل كما أمر الرسول ﷺ بالتثبت من الأقوال ففي ذلك درء لكثير من المفاسد والفتن والمهالك، ولا ينسى المسلم كيف اهتم علماء الحديث في العناية بأحاديث الرسول ﷺ والتثبت منها سنداً ومتناً، وتمحيص المتون والرجال لما يترتب على ذلك من أمور دينية ودنيوية، ثم لو أن الإنسان تأكد من صحة خبر وإن كان فيه إساءة أو سوء فالعفو والصلح وإصلاح ذات البين هي السبيل الحقيقي لإقامة الحق ووضع ميزان العدل وليس الحرب والقتال والهجر والقطيعة والغيبة والنميمة، وعلى ولاة الأمر أن يتحلوا بالحكمة والأناة اقتداء بالرسول الرؤوف الرحيم ﷺ الذي كان من حكمته التثبت والتأكد، ففي سياق الآيات التي تلت الآية الكريمة، يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ بينت أن على القائد وولي الأمر التثبت وقد دعا الأمة إلى معرفة الحق، فوصفه الله جل وعلا بقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[١٨٩] .

ومن وصايا الإسلام في القرآن الكريم وهدي المصطفى ﷺ لزوم الصدق ووجوبه على المسلم، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[١٩٠] ، وقوله ﷺ : **«إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»**[١٩١]، وقال عليه الصلاة والسلام : **« دع ما يريبك إلى مالا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»**[١٩٢].

فلا بد على الإنسان أن يحذر من مغبة هذه الآفة الضارة لحياته وحياة غيره من الناس بسبب قرارات اتخذت على الظن لا اليقين، وعلى الشك لا على الاستيقان،

وعلى الريبة والكذب لا الصدق، وكان لذلك آثار وخيمة وسيئة. ويسعى المبطلون والمثبطون والمرجفون إلى الوقيعة بين الناس خصوصاً بين المسلمين أنفسهم وبينهم وبين غير المسلمين، ولهذا نهى الله سبحانه وتعالى عن الظن لما فيه من الإثم وأوجب تجنبه احتياطاً للابتعاد عن التهمة والتخون، فعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: **«ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى منك، ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً»**[١٩٣]، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانًا»**[١٩٤]، وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : **«لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»**[١٩٥]، وقال رسول الله ﷺ : **« ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن»** فقال رجل : وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ : **« إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق؛ وإذا تطيرت فامض»**[١٩٦].

ويلحق بالظن ذلك الذنب العظيم التجسس وما ينجم عنه من آثار سيئة على حياة الفرد والجماعة، ففيه كشف للعورات، وإطلاع على السوءات وهتك للأسرار والأستار، لقد حفظ الإسلام للإنسان حق الخصوصية والستر، وحفظ سره وتمتعه بهما دون تلصص أو تجسس أو تحسس، أو فرض أي صورة من صور الرقابة على شؤونه الخاصة بغير حق، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[١٩٧]، وقال عليه الصلاة والسلام : **«ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»**[١٩٨]، والتجسس هو البحث عن الشيء، والتحسس هو الاستماع إلى كلام الآخرين

وهم له كارهون، قال الرسول ﷺ : **«من اطلع في دار قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فقد هدرت منه»**، وفي لفظ : **« من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقأو عينه»**[١٩٩]، وفي هذا محافظة على مشاعر الإنسان وأحساسيه وعواطفه، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٢٠٠]، إن النظام الدولي الإسلامي الذي يحدد علاقة المسلمين مع غيرهم مما تحدثنا عنه في موضوع العولمة، يوضح أن العلاقات الدولية تتصل بقواعد ومبادئ شرعية أمر بها الإسلام لحتمية وضرورة الحياة على الأرض، تلك الحتمية التي تقوم على تعددية الشعوب والأمم واختلاف الألوان والأجناس والألسن، وتلك الضرورة تقضي بنبذ الحروب وكف شتى أنواع الأذى من نقل الأخبار الكاذبة أو التجسس أو الظن أو السخرية وانتقاص الناس وانتهاك حقوقهم بسبب اللون أو الجنس أو الدين أو اللغة، هذا التنظيم الدولي ليس هو جملة آداب ومكارم أخلاق فحسب، بل حقوق وواجبات يأمر بها الإسلام ليعيش الناس في سلام، بعيداً عن أجهزة التجسس المنبثة في عالمنا التي لم تحفظ حق الإنسان في خصوصيته ورعاية حرمة حياته الخاصة، فحرمته متعة الستر والسر، ولقد بلغ الأمر بأعداء الإنسانية أن انتهكوا حرمة الأفراد إلى النخاع، حتى أن المفكر الأمريكي باكارد في كتابه : (المجتمع العاري) **The Naked Society**، يصف بعض المجتمعات في ظل ذلك القانون التجسسي بأنها المجتمعات العارية لكثرة التجسس والتلصص فهل في مثل هذا المجتمع تصان حرمة الإنسان وحقوقه؟ إن ذلك المنهج مناقض لما في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والصكوك الدولية من مبادئ حقوقية، عن كعب بن علقمة عن أبي الهيثم عن دجين كاتب عقبة قال : قلت لعقبة : « إن لنا جيراناً يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم، قال : لا تفعل ، ولكن عظهم وتهددهم، قال : ففعل فلم ينتهوا، قال : فجاءه دجين فقال : إني قد نهيتهم فلم ينتهوا وإني داع لهم الشرط فتأخذهم، فقال له عقبة : ويحك لا تفعل، فإني

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها** »[٢٠١]، وقال سفيان الثوري عن راشد بن سعد عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول : « **إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم** »[٢٠٢]. وإن كان ذلك لا يصح فيما بين الناس أنفسهم، فهو أيضاً لا يصح من الحاكم نفسه لقوله ﷺ : «**إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم**»[٢٠٣] ، فلا يصح إذن أن تفسد حياة الناس في معتقد أو رأي حر لا ضرر منه، ولا يجوز الاستهانة بحقوق الإنسان وغمطها بمصادرة الحريات الفكرية والعلمية والحق في إبداء الرأي الذي جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والإتيان بما يناقضها، ومن الواجب أيضاً استخدام التجارب العلمية والتقدم التكنولوجي لصالح السلام والبشرية، لا لتستخدم في الأغراض العسكرية وصناعة الأسلحة المدمرة، ولا لكي تستعمل للتجسس والتصنت ولا لتوظف لخدمة آراء خاصة لا تخدم مصلحة العامة .. الخ، هكذا كان الإسلام لا يستخدم العلم إلا لذات العلم ولنفع البشرية ولصالح الإنسانية بما يحقق لها السعادة والرفاه والخير والعدل والسلام قبل ما يزيد عن خمسة عشر قرناً من صدور الإعلان الخاص باستخدام التقدم العلمي والتكنولوجي لصالح السلم وخير البشرية الذي أقرته الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة في ١٠/١١/١٩٧٥م بالقرار رقم ٣٣٠٤ د ـ ٣٠. وختاماً فإن حرية الرأي في الإسلام تنطلق من الكلمة الطيبة لأن الكلمة الخبيثة ضارة ومنفرة[٢٠٤] ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[٢٠٥]، ثم لابد أن يكون الحوار والجدال والمناظرة قائم على الحق والعدل والحسنى بعيداً عن إثارة الأحقاد والضغائن وكشف العورات والتجسس على الأسرار كما يجب أن تتبنى حرية الرأي والتعبير على سدادة القول وفصاحة الكلام، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[٢٠٦]، ويجب أن لا يكون التعبير عن الرأي مسيء إلى الناس في حقوقهم أعراضهم وأموالهم ودماءهم وهكذا وألا تتخذ حرية الرأي كسبيل يناقض حقوق الإنسان ويسيء إلى حريته وكرامته وإنسانيته[٢٠٧]، وحرية الرأي تكون من نواقض المبادئ الحقوقية وتتنافى مع الإنسانية متى استخدمت فيها وسائل الإعلام والاتصال للإساءة إلى الناس أو انتقاصهم أو ترويج الدعايات وإطلاق الإشاعات والأكاذيب أو التشكيك في الحقائق والوقائع أو إلباس الباطل ثوب الحق وهذا كثير في عالمنا المعاصر وقد ضاعت الحقوق وتُعدِّي على الحدود فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سمات الحرية الفكرية والعلمية والتقنية في المملكة العربية السعودية

ينطلق حديثنا عن الفكر والعلم والتقنية في بلاد الحرمين الشريفين استناداً إلى مبادئ الإسلام في خدمة الإنسانية من خلال الحرية العلمية والحرية الفكرية ومنها ما جاء في الإعلان الخاص باستخدام التقدم العلمي والتكنولوجي لصالح السلم وخير البشرية الذي أصدرته هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٧٥م وذلك لإبراز سمات حقوق الإنسان في المملكة العربية السعودية في هذا الجانب وأنه متوافق مع كثير من المواثيق والصكوك الحقوقية الدولية، وإن المملكة لم تتخذ حرية الرأي للإساءة للآخرين والهجوم عليهم وانتهاك حقوقهم كما تعرضت هي نفسها لتلك الهجمات الشرسة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، كما أن المملكة العربية السعودية لم تستخدم العلم والتقنية في أعمال التسلح وفي الأمور التي تضر بالإنسان، بل استغلت ذلك في تنمية الإنسان السعودي إجتماعياً وإقتصادياً وعملياً وفكرياً ..الخ ، من خلال إنشاء الجامعات ومراكز البحوث وإقامة المدن الصناعية ..الخ وهذا هو موضوع هذا المبحث المتعلق بالحرية الفكرية والعلمية وسماتها في المملكة العربية السعودية توافقاً مع الأحكام الإسلامية والمبادئ الإنسانية التي يسعها الإسلام بروحه ومضمونه وشكله وسماحته.

إن حرية الرأي والتعبير في المملكة العربية السعودية ترى مظاهرها في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي أقوال أئمة الحرمين الشريفين والمساجد المنتشرة في أنحاء المملكة، فضلاً عما يستخدم في وسائل الإعلام المختلفة، وفي مجلس الشورى وغيرها من الجهات والمؤسسات الحكومية الرسمية وغير الرسمية في مجالس الأمراء والوزراء، وتنص المادة التاسعة والثلاثين من النظام الأساسي للحكم في المملكة العربية السعودية بأن : « تلتزم وسائل الإعلام والنشر وجميع وسائل التعبير بالكلمة الطيبة وبأنظمة الدولة، وتسهم في تثقيف الأمة ودعم وحدتها، ويحظر كل ما يؤدي إلى الفتنة أو الانقسام، أو يمس بأمن الدولة. وعلاقاتها العامة أو يسيء إلى كرامة الإنسان وحقوقه وتبين الأنظمة كيفية ذلك»، واهتماماً من ولاة الأمر في المملكة بحرية الرأي ووجوبه في الإسلام فقد أصدر الملك عبد العزيز ـ يرحمه الله ـ يوم الثالث من شهر رمضان المبارك عام ١٣٦٨هـ مرسوماً برقم ٣٩٩٦/١٦/٣/٧ بإنشاء الإذاعة، وقد أكد المرسوم على استراتيجية العمل الإعلامي بالاعتماد على ثوابت الشريعة الإسلامية ونشر الثقافة الإسلامية وتمحيص ما يذاع والالتزام بالصدق والموضوعية والأخلاق الفاضلة، والإعْرَاض عن الكذب والتحريف والإساءة ووقوفه عند أدب المجادلة وصيانة الأعراض والنفوس والحقوق داخلياً وخارجياً[٢٠٨] ، ولقد سبق إنشاء الإذاعة إصدار الملك عبد العزيز يرحمه الله نظامان للمطابع والمطبوعات ومنها الصحف وذلك عام ١٣٤٧هـ وكذلك عام ١٣٥٨هـ[٢٠٩]، هكذا سار العمل الإعلامي في المملكة العربية السعودية في عهود أبناء الملك عبد العزيز الذين تولوا سدة الحكم من بعده. واتبعوا سيرة أبيهم الكريمة الذي لم يوظف الإعلام ووسائله المختلفة لتحقيق أمجاد لشخصه كما فعل غيره، ليس ذلك عن تجاهل لقيمتها، ولكن اعمالاً لقوله تعالى : ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾[٢١٠]. نلحظ اهتمام المملكة العربية السعودية بالإعلام وحرية الرأي عندما أنشئ المجلس الأعلى للإعلام، وجعل على رأسه أحد أبناء الملك المؤسس ـ يرحمه

الله ـ إنه صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز آل سعود، ويحسن بنا في البداية، إعطاء نبذة عن المراحل التي سبقت ظهور السياسية الإعلامية للمملكة العربية السعودية كما جاءت في مجمل ما كتبه الأستاذ بدر أحمد كريم في مقالة له بعنوان : «قراءة في السياسة الإعلامية للمملكة العربية السعودية»، ففي ١٣٩٧/٢/٣هـ (يناير ـ كانون الثاني ١٩٧٧م) صدر قرار مجلس الوزراء رقم ٨/١٨٨ بتشكيل مجلس أعلى للإعلام في المملكة العربية السعودية، برئاسة وزير الإعلام، وعضوية عدد من المسؤولين في أجهزة الدولة المختلفة، والمفكرين والمثقفين. وفي ١٤ جمادى الأولى عام ١٤٠٠هـ، (٣١ مارس ـ آذار ١٩٨٠م) صدر قرار مجلس الوزراء رقم ٧٨ بالموافقة على اللائحة التنظيمية للمجلس الأعلى للإعلام، وقد تضمنت اللائحة اثنتي عشرة مادة، منها أربع مواد عن مهام المجلس واختصاصاته، ومادتان عن كيفية انعقاد اجتماعاته، وأربع مواد اشتملت على الأحكام المالية، ومادتان أحكام عامة. وحددت المواد الأولى والثانية والثالثة والرابعة، مهام المجلس واختصاصاته، فأوضحت أنه يختص «بوضع سياسة إعلامية، تحقق الأهداف العامة لحكومة المملكة العربية السعودية، تنبثق من الشريعة الإسلامية»، كما أن على مجلس الإعلام الأعلى «متابعة تنفيذ السياسية الإعلامية، وعليه اقتراح ما يراه من تعديلات عليها». وبالإضافة إلى ذلك، فإن من اختصاص المجلس «الإشراف على جميع ما يقدم في الإذاعتين المسموعة والمرئية، وما تحويه الكتب والمجلات والصحف والأفلام والتسجيلات والنشرات والإعلانات، وكل ما له صلة بالإعلام، ووسائل الاتصال بالجمهور». كما أن للمجلس الأعلى للإعلام أن يطلب أية معلومات أو دراسات أو بيانات من أية جهة حكومية، لغرض الاطلاع عليها، أو الاستفادة منها، في تأدية مهامه، وأن يتفق مع الجامعات أو المعاهد بالمملكة، على إجراء دراسات ميدانية، أو القيام ببحوث إعلامية، للاستفادة منها فيما هو داخل في حدود اختصاصاته. ثم بعد ذلك صدر أمر ملكي برقم ٨/٢٠٢٢

وتاريخ ١٢ رمضان عام ١٤٠١هـ، (١٣ يوليو - تموز - ١٩٨١م)، أمر ملكي آخر برقم ٨/٢٠٨٨ وتاريخ ٢٨ رمضان ١٤٠١هـ، (٢٩ يوليو - تموز ١٩٨١م) بإعادة تشكيل المجلس الأعلى للإعلام، برئاسة سمو وزير الداخلية الأمير نايف بن عبدالعزيز آل سعود، على أن يكون وزير الإعلام نائباً للرئيس، وعضوية عدد من المسؤولين، ورجال الفكر والثقافة، وقد عقد المجلس أول اجتماع له بعد تشكيله الجديد، في مدينة الطائف يوم ١١ شوال عام ١٤٠١هـ، (أغسطس - آب ١٩٨١م) حيث ناقش «السياسة الإعلامية وبرنامج عمل المجلس في المستقبل، وبعض الأمور التنظيمية للمجلس، كالأمانة العامة، واللائحة الداخلية للمجلس الجديد»[٢١١]، وفي يوم ٢٥ شوال عام ١٤٠١هـ، (٢٥ أغسطس - آب ١٩٨١م) أقر المجلس الأعلى للإعلام، اللائحة الداخلية للمجلس، التي تتكون من خمس عشرة مادة، توضح كيفية انعقاد المجلس، وإنشاء لجنة تحضيرية من أعضاء المجلس، وكذا تحديد واجبات واختصاصات الأمانة العامة. وفي يوم ١٤٠٢/١٠/٢٠هـ (٩أغسطس - آب ١٩٨٢م) صدر قرار مجلس الوزراء رقم ١٦٩، بالموافقة على السياسة الإعلامية للمملكة العربية السعودية: «لتشكل بذلك الإطار الذي يحمي المجتمع السعودي من الأخطار، ولتكون وسائل الاتصال الجماهيري أداة للتوجيه والتوعية والتثقيف وخدمة المجتمع، وذلك عن طريق تأصيل قيمه الإسلامية، وترسيخ تقاليده العربية الكريمة، والحفاظ على عاداته الخيرة الموروثة، ومقاومة كل ما من شأنه أن يفسد نقاءه»[٢١٢]. علماً بأنه في ١٤٢٤/٣/٣هـ صدرت عدة أوامر ملكية تضمنت إلغاء المجلس الأعلى للإعلام وإعادة تسمية وزارة الإعلام باسم وزارة الثقافة والإعلام بعد أن تم تفعيل العمل الإعلامي طيلة عمل المجلس الأعلى للإعلام منذ تأسيسه وحتى تاريخ إلغائه عندما رأت الدولة عدم الحاجة إليها، وتتكون السياسة الإعلامية في المملكة العربية السعودية من ثلاثين مادة، وتشمل كما جاء في التمهيد لهذه السياسة: «الخطوط العريضة التي يلتزم بها الإعلام

السعودي لتحقيق هذه الأهداف من خلال التثقيف والتوجيه والأخبار والترفيه». كما تشكل هذه السياسة: «المبادئ والأهداف التي يرتكز عليها الإعلام في المملكة ويتطلبها»، في حين أن الأساس الرئيسي والهام الذي ارتكزت عليه السياسة الإعلامية وانبثقت منه هو «الإسلام الذي تدين به الأمة عقيدة وشريعة».

الأهداف

تهدف السياسة الإعلامية للمملكة العربية السعودية إلى :

(١) ترسيخ الإيمان بالله عز وجل في نفوس المواطنين.

(٢) النهوض بالمستوى الفكري والحضاري والوجداني للمواطنين.

(٣) معالجة المشكلات الاجتماعية وغيرها.

(٤) تعميق فكرة الطاعة لله ولرسوله ولأولى الأمر.

(٥) الحض على احترام النظام وتنفيذه عن قناعة.

كما تعد هذه السياسة جُزْءًا من السياسة العامة للدولة، ويبدو واضحاً من خلال هذه الأهداف عمق وشمولية الأغراض التي توسمتها، بحيث يسهل على القائمين على وسائل الاتصال الجماهيري وضع وتصميم الأطر الكفيلة بتحقيق هذه الأهداف والمداخل التي يمكن من خلالها الوصول إلى أعماق الناس لبث المفاهيم الصحيحة، والقيم الأصيلة، وتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة، وإحلال مفاهيم صائبة بدلاً عنها، في هذه المرحلة المتقدمة من حياة المجتمع السعودي، التي شهدت وتشهد تحولات عميقة، بفعل خطط التنمية الطموح التي وضعتها الدولة في كافة المجالات، بغية الارتقاء بمستوى المجتمع، واستخدام أحدث وسائل التقنية الحديثة، وتأهيل وإعداد القوى البشرية، القادرة على التفاعل مع المنجزات الحضارية، والاستفادة منها في عملية التغير الاجتماعي، كل ذلك في إطار من المحافظة على القيم الدينية للمجتمع السعودي.

وإذا أمعنا النظر جيداً في السياسة الإعلامية للمملكة العربية السعودية، وتفحصنا المجالات التي تطرقت إليها، والوسائل أو الأدوات التي تستخدمها من أجل تحقيق تلك الأهداف، فإننا نقف على الأبعاد الكثيرة والكبيرة معاً، الأبعاد التي كان على السياسة الإعلامية أن تلتزم بها، لا باعتبارها نهجاً فقط تلتزم به وسائل الإعلام، وإنما لأنها جزء لا يتجزأ من السياسة العامة للدولة، التي قامت وتقوم على العقيدة الإسلامية، مصدر الحكم والتشريع والتنظيم للمجتمع السعودي، وسنحاول أن نجمل في البداية تلك المجالات، ثم نتحدث عن كل واحد منها، بشيء من التفصيل.

أولاً: التزام الإعلام السعودي بالإسلام ، في كل ما يصدر عنه، مع ضرورة استبعاد كل ما يناقض الشريعة الإسلامية، في الوقت الذي عليه أن يناهض التيارات الهدامة، والاتجاهات الإلحادية، والفلسفات المعادية، كما أن عليه مسؤولية الكشف عن زيفها، وإبراز خطرها على الأفراد والمجتمعات.

ثانياً : خدمة المجتمع السعودي، ودفع عجلة التنمية في البلاد، وذلك عن طريق تأصيل قيمه الإسلامية الثمينة وترسيخ تقاليده العربية الكريمة والحفاظ على عاداته الخيرة الموروثة ومقاومة كل ما من شأنه أن يفسد نقاءه.

ثالثاً : إبراز شخصية المملكة العربية السعودية، الفريدة والمتميزة، وتوثيق روابط الحب والتآزر بين أفراد الشعب السعودي، وتعميق عاطفة الولاء للوطن أرضاً وكياناً في نفوس المواطنين.

رابعاً : الاهتمام بالأسرة والطفل والمرأة والشباب، وتقديم البرامج المدروسة لهم التي تعالج مشكلاتهم وتلبي حاجاتهم.

خامساً : الاهتمام بالتوثيق الإعلامي، لتاريخ وثقافة المملكة العربية السعودية وكذلك تراثها الحضاري وإجراء البحوث والدراسات الإعلامية، وتخصيص برامج ثقافية، للفئات المثقفة ثقافة عالية.

سادساً : مكافحة الأمية والتخلص منها، وتوظيف الجهود لمعالجة هذه المعضلة.

سابعاً : الحرص على استخدام اللغة العربية الفصحى، بحكم أنها وعاء الإسلام، ومستودع ثقافته، وموئل تراثه.

ثامناً : دعم النهضة العلمية والثقافية بالمملكة العربية السعودية، والاهتمام بالتراث.

تاسعاً : العمل على توثيق أواصر الإخاء والتآزر بين المسلمين، والدعوة إلى تضامن العرب ووحدتهم واجتماع كلمتهم على الحق، والبعد عما يفكك أواصرهم، وتبني منهجاً إعلامياً يخدم مصالح المسلمين الدينية والدنيوية.

عاشراً : التأكيد على احترام حقوق الأفراد والجماعات، وتأصيل روح التكافل الاجتماعي.

ثاني عشر : التأكيد على أن حرية التعبير في وسائل الإعلام السعودي مكفولة، ضمن الأهداف والقيم الإسلامية والوطنية، التي يتوخاها الإعلام السعودي.

ثالث عشر: احترام الإنسان واستنكار كل اعتداء من أي نوع يقع على حقوق الشعوب والأفراد ومكافحة الأطماع التوسعية، والوقوف بجانب الحق والعدل والسلام، ومناهضة الظلم والتفرقة العنصرية.

رابع عشر: إعداد الطاقات البشرية الخبيرة المثقفة، القادرة على تحقيق أهداف الإعلام السعودي.

خامس عشر: تشجيع إنتاج المواد الإعلامية المحلية الجيدة، وفق السياسة الإعلامية.

وفي هذا الصدد يقول أحد خبراء الإعلام : «إن لوسائل الاتصال الأثر الفعال في صياغة عقليات الأفراد في المجتمع، وتوجيه أنماط سلوكهم، وبناء قدراتهم الذاتية، وفي صياغة الواقع الفكري والحضاري للمجتمع، باعتباره كياناً واحداً، متماسك الجوانب، مترابط الأجزاء. وحتى يمكن لوسائل الاتصال المختلفة، أن تؤدي رسالتها في مجال التغير الاجتماعي، فإنه لابد من رسم سياسة إعلامية متكاملة، في المجالات الاجتماعية والفكرية، والثقافية والتعليمية والترويحية، تسهم في توضيح الرؤية أمام المسؤولين في وسائل الاتصال، وفي رسم سياسة تنفيذية لها، تعتمد عليها وتنطلق منها»[٢١٣].

ولما كان لكل إعلام ناضج ومؤثر عقيدة يرتكز عليها، وينطلق منها، فيما يبثه من مواد وأنشطة وبرامج، تستهدف تنمية روح الجماعة، وترمي إلى المزيد من الإيمان في النفوس، فقد أكدت المادتان الأولى والثانية، من السياسة الإعلامية للمملكة العربية السعودية على ضرورة التزام وتمسك الإعلام السعودي بالإسلام في كل ما يصدر عنه، والمحافظة على عقيدة سلف هذه الأمة، واستبعاد كل ما يناقض شريعة الله التي شرعها للناس، وكذلك مناهضة التيارات الهدامة، والاتجاهات الإلحادية، والفلسفات المعادية، وكل ما يصرف المسلمين عن عقيدتهم، إلى جانب قيام الإعلام السعودي بكشف زيف وإبراز خطر تلك المحاولات والاتجاهات والفلسفات المعادية على الأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية في كل مكان وزمان.

ومن هنا يتبين لنا أن الإعلام السعودي إعلام ملتزم بالعقيدة الإسلامية، ومنطلق من روح الشريعة الإسلامية، ومن ثم فهو يرفض ويقاوم ويتصدى لأي اتجاه أو محاولة، تهدف إلى اجتثاث هذه العقيدة السمحة من روح الأمة، بل إن عليه أن يوضح للرأي العام في الداخل والخارج زيف وخطورة تلك المحاولات، حتى يكون على بينة من أمره، وحتى يتأكد أن الإسلام هو المنقذ الوحيد لهذا العالم من الأخطار المادية والإلحادية التي تحدق به، وتلك لعمري مسؤولية هامة وخطيرة لا يمكن أن يقوم بها إلا إعلام يرتكز على شريعة الله التي تتمثل في الإسلام الخالد.

إن الإعلام الناجح، هو الذي يعرف كيف يتعامل مع المجتمع الذي يخدمه ليؤصل فيه مفاهيم وقيم وتصورات صحيحة، ويبعد عن طريقه كل ما هو ضار وغير نافع. وحتى تكون وسائل الاتصال الجماهيري في المملكة العربية السعودية وسائل لخدمة المجتمع، فإن عليها أن تسلح أعضاءه بالوقائع والمعلومات والحقائق الوافية والصادقة، التي تتمثل في تأصيل القيم الإسلامية الثمينة، والعمل على

ترسيخ التقاليد العربية الكريمة، والمحافظة على العادات الخيرة الموروثة للمجتمع السعودي، ومقاومة كل ما من شأنه أن يفسد نقاء هذا المجتمع.

وإذا كان علماء الاجتماع ينظرون إلى القيم الدينية على أنها الدافع والمحرك لاتجاه الإنسان والتفاعل مع معطيات التغير الاجتماعي الذي تشهده الآن معظم المجتمعات وخاصة النامية منها، فإن الدين الإسلامي قد نادى بذلك منذ خمسة عشر قرناً حين قرر أن القيم الإسلامية هي العنصر الفعال والحاسم في كل تغيير، الغرض منه نقل المجتمع من حالة إلى حالة أكثر تطوراً وتقدماً، وهنا يأتي دور الإعلام ليؤصل القيم الثمينة في النفوس، ويرسخ التقاليد العربية الكريمة، التي احتفت بها الجزيرة العربية على مر الأزمنة والعصور، ويحافظ على العادات الخيرة لهذا المجتمع. إن الإعلام لكي يكون مؤثراً، لابد أن يضع في أولى سياساته أن يكون في خدمة المجتمع، وإذا لم يمارس الإعلام هذه الوظيفة، ويستشعر مسؤولياته نحوها، فإنه يشكل خطورة على أعضاء النسق الاجتماعي، الأمر الذي جعل السياسة الإعلامية للمملكة العربية السعودية تؤكد في مادتها الثالثة، على أن الإعلام السعودي هو إعلام في خدمة المجتمع.

والجزيرة العربية التي تكوِّن المملكة العربية السعودية جزءًا كبيراً منها هي مهد ومنبع الإسلام، إذ إن منها انطلقت الدعوة الإسلامية إلى أرجاء العالم، وفيها كعبة المسلمين التي يتجهون إليها خمس مرات في اليوم والليل، مما جعل منها شخصية فريدة ومميزة، إذ أنها الدولة الأولى في العالم التي تعتمد في كل نظمها وتنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية وغيرها على الإسلام وتعاليمه، إذ لا مكان في المجتمع السعودي للأنظمة الوضعية، إلى جانب هذا على المملكة العربية السعودية، التزامات كبرى تجاه المسلمين عامة، الذين يفدون إلى الأراضي المقدسة في كل عام لأداء فريضة الحج.

وعلى هذا الأساس، فقد أشارت المادة الخامسة من السياسة الإعلامية على

ضرورة اهتمام وسائل الإعلام السعودي، بإبراز شخصية المملكة، والكشف عما حباها الله من نعمة الإسلام دستوراً للحكم وشريعة للحياة، إذ إن الأمن والاستقرار لا يتحققان لمجتمع من المجتمعات إلا في ظل تطبيق ما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله محمد ﷺ، حتى يكون المجتمع خالياً من الأمراض والأوبئة والأوضار والأضرار الاجتماعية.

ونظرت السياسة الإعلامية للمملكة العربية السعودية كما جاء في مادتها الثامنة إلى الأسرة على أنها الخلية الأساسية في بناء المجتمع، والمدرسة الأولى التي يتلقى فيها الصغار معارفهم وتوجيههم، ويتم في رحابها تكوين شخصياتهم، وضبط سلوكهم. ولذلك فإن على الإعلام السعودي أن يولي الأسرة ما تستحقه من اهتمام، وأن يقدم لها كل ما من شأنه أن يعينها على تحقيق رسالتها وترابطها. أما بالنسبة للطفل، فقد اعتبرته السياسة الإعلامية في المادة التاسعة بنظرة نقية صافية وتربة خصبة، وأنه صورة مجتمع الغد، إنما تلمح من خلال طفل اليوم، ولذلك فإن الإعلام السعودي عنى ببرامج الأطفال، وخاصة في مجال التوجيه والتثقيف والترفيه، وتقديم هذه البرامج على أسس تربوية علمية مدروسة، وأن يعهد بها إلى ذوي الاختصاص الدقيق في هذا المجال. ولم تهمل السياسة الإعلامية المرأة السعودية، لأن **«النساء شقائق الرجال»**، ولأن المرأة هي صانعة أطفال اليوم ورجال الغد، من خلال استخدام أساليب التربية السليمة والصحيحة، وعلى هذا الأساس، فإن المادة العاشرة من السياسة الإعلامية أكدت على أن من واجب وسائل الإعلام السعودي أن تلاحظ في عمق الفطرة الخاصة بالمرأة، والوظيفة التي أناطها الله بها، وأن تعمل على تخصيص برامج تعينها على أداء وظائفها الملائمة لفطرتها في المجتمع.

وحيث أن الشباب هم عماد الأمة وعدتها وذخيرتها، فقد أشارت المادة الحادية عشرة إلى أهمية مراعاة الإعلام السعودي للشباب رعاية خاصة، تنبثق من الإدراك الواعي للمراحل الخطرة التي يمرون بها ابتداء من سن المراهقة إلى بلوغ سن

الرشد، وأن تخصص لهم برامج مفيدة ونافعة مدروسة، تعالج مشكلاتهم وتلبي حاجاتهم، وتصونهم من كل انحراف، وتعدهم اعداداً سليماً قوياً في الدين والخلق والسلوك. وتعتبر الوظيفة التعليمية، من أبرز وأهم الوظائف التي يجب على وسائل الاتصال الجماهيري القيام بها تجاه الأفراد والجماعات والمجموعات، وإذا خلت إحدى وسائل الاتصال الجماهيري من أداء هذه الوظيفة، فإنها تكون بذلك قد أخلت بهدف من أهدافها الأساسية والرئيسية تجاه المتلقين لرسائلها، سواء كانت مسموعة أم مرئية أم مقروءة. وهذا ما اتفق عليه علماء الاتصال والاجتماع، وقد أناطت السياسة الإعلامية للمملكة العربية السعودية مسؤولية المساهمة في مكافحة الأمية والتخلص منها بالإعلام السعودي كما جاء في المادة السادسة عشرة إذ على الإسلام أن يوظف قدراً مناسباً من جهوده لهذه المعالجة على أسس تربوية علمية، كما أن عليه أن يخصص برامج ثقافية، تناسب مختلف الأذواق والأعمار، وترتقي بفكر الإنسان ووجدانه.

وقد اثبتت بعض البحوث والدراسات، التي أجريت في نواح متفرقة من العالم، أن في مقدور وسائل الاتصال الجماهيري، وخاصة الإذاعة المسموعة والمرئية، تقديم بعض البرامج، التي أثبتت نجاحها في مجال مكافحة الأمية، وتأسيساً على ذلك، فإن وسائل الإعلام السعودية استشعرت قسطها المهم من المسؤولية في معالجة هذه الظاهرة، التي تشكل عائقاً يعوق المجتمع عن القيام بدوره وواجباته في الحياة.

وتوقن السياسة الإعلامية للمملكة العربية السعودية، بأن اللغة العربية الفصحى هي وعاء الإسلام ومستودع ثقافته وموئل تراثه، وإدراكاً لكل هذا فقد أشارت المادة السابعة عشرة إلى أهمية الالتزام بقواعد الفصحى نحواً وصرفاً، وسلامة في التعبير، وصحة في استعمال اللفظ، والحرص على تنقية المادة الإعلامية التي تقدم من خلال وسائل الإعلام جميعها عن كل ما ينال من اللغة العربية الفصحى، أو ينفر منها أو يقلل

من أهميتها، إلى جانب الإسهام في تعليم الفصحى، لغير الناطقين بها، من أبناء الشعوب الإسلامية، وفق أحدث الأساليب العلمية والتربوية، وتؤكد على التزام وسائل الإعلام السعودية باللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم، وأعظم بها من لغة.

وان من واجبات الإعلام الأساسية أن يكون أداة لدعم النهضة العلمية والثقافية للمجتمع الذي يخدمه، ومن هنا فقد أكدت المادة الثامنة عشرة بأن يقوم الإعلام السعودي بنصيبه في دعم النهضة العلمية والثقافية بالمملكة العربية السعودية عن طريق تشجيع الباحثين والعلماء والمفكرين والإسهام في نشر إنتاجهم، وإفساح المجال أمامهم لعرض وجوه نشاطهم على الملأ، ورعاية المواهب الشابة وتشجيعها مادياً ومعنوياً، والعمل على عقد الندوات الفكرية، والمؤتمرات الأدبية والعلمية، واللقاءات بين المثقفين من أبناء المملكة، وبين نظرائهم في الخارج، بغية الإسهام في الحياة العلمية الجادة، وفتح أبواب الحوار البناء، وإبراز وجه المملكة الثقافي والعلمي في الداخل والخارج. ولا شك أن سياسة هذا شأنها، لابد أن توفر للعلم والثقافة المناخ الملائم الذي تنمو فيه المعرفة العلمية التي تهدف إلى التعرف على أحدث منجزات العصر، وتفتح ذراعيها للإنتاج العلمي والثقافي، الذي يتفق مع السياسة الإعلامية، وبهذا المفهوم تكون السياسة الإعلامية منفتحة على العالم لا معزولة عنه، بفعل وسائل الاتصال الحديثة، التي جعلت أحد علماء الاتصال يصف عالم اليوم بقوله : «سوف نصبح سكان قرية عالمية واحدة، وسوف يمضي هذا العالم الذي نعيش فيه، عالم التزام كامل، يكون كل إنسان فيه موضع عناية الآخرين، وذلك بفضل وسائل الاتصال الحديثة بالجماهير»[٢١٤].

ومنذ أن تأسست المملكة العربية السعودية، على يدي جلال المغفور له الملك عبد العزيز يرحمه الله، فقد وضعت في أولويات سياساته، العمل على توثيق أواصر الإخاء والتآزر والتضامن بين المسلمين، إلى جانب الدعوة إلى تضامن العرب والمسلمين وتعاونهم، واجتماع كلمتهم على الحق، والبعد عما يفكك أواصرهم،

والدفاع عن قضاياهم ومشكلاتهم المصيرية، وحثهم على القيام بواجبهم في الدعوة إلى الإسلام، والدفاع عنه، حيث أكرمهم الله سبحانه بذلك، ولقد جاءت المادتان العشرون والحادية والعشرون من السياسة الإعلامية لتؤكد على هذا المفهوم من جديد، ولتجعلا من وسائل الإعلام السعودية أداة تجمع لا تفريق، وتوحد لا تشتت، سبيلها إلى ذلك الدعوة إلى الله بالتي هي أحسن، لأنها تدرك إدراكاً عميقاً أن لا خير في الفرقة، وأن مشكلة أي بلد عربي أو مسلم هي مشكلة البلاد العربية والإسلامية كلها، لأن رسول الله ﷺ يقول : «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**»[٢١٥]. كما أكدت المادة الثالثة والعشرون، على أن تعمل المؤسسات الإعلامية السعودية مع نظيراتها في العالم الإسلامي عامة، والعربي منه خاصة، على تبني منهج إعلامي موحد يخدم مصالح المسلمين الدينية والدنيوية، ويمثل وحدتهم الفكرية والحضارية، ويؤلف بين قلوبهم. وبهذا المنهج الإعلامي الموحد الذي تتبناه وسائل الإعلام السعودي ومثيلاتها في العالمين العربي والإسلامي يتحقق التكامل المنشود، في سبيل وحدة إسلامية شاملة تتخذ من كتاب الله نبراساً، ومن سنة رسوله ﷺ مرشداً.

ولابد لكل سياسة إعلامية راشدة أن تحترم حقوق الأفراد والجماعات، والعمل في الوقت نفسه على تأصيل روح التكافل الاجتماعي بين أبناء الأمة الواحدة، وتنمية خلق التعاون والبذل في النفوس، وإشعار المواطنين بمسؤولياتهم المباشرة عن مجتمعهم. وهذا ما أكدت عليه السياسة الإعلامية في المادة الرابعة والعشرين، ذلك أن احترام هذه الحقوق وعدم انتهاكها طالما لا تنتهك النظام العام أو تسيء إلى الصحة العامة والأمن العام من شأنها إشاعة الأمن والطمأنينة في النفوس، الأمر الذي يترتب عليه استقرار المجتمع، وتمكين أبنائه من المساهمة في خدمته، والتعاون فيما بينهم، تلبية لنداء الله عز وجل القائل : ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا**

عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ﴾[٢١٦]، وتعد الموضوعية في تقديم وعرض الحقائق والوقائع والمعلومات من أهم الأسس في الإعلام الذي لابد أن يعتمد على الصدق والموضوعية معاً، لأن من شأن ذلك إقناع الناس واستمالتهم إلى جانب الحق الذي يكون قائماً على الوثائق والحجج التي تدعم الموقف. وهذا ما رمت إليه السياسة الإعلامية في مادتها الخامسة والعشرين، حيث أكدت على اعتماد الإعلام السعودي على الموضوعية في عرض الحقائق والبعد عن المبالغات والمهاترات، وأن عليه أن يقدر بعمق شرف الكلمة ووجوب صيانتها من العبث، والارتفاع عن كل ما من شأنه أن يثير الضغائن ويوقظ الفتن والأحقاد.

وكفلت المادة السادسة والعشرون، من السياسة الإعلامية للمملكة العربية السعودية حرية التعبير في وسائل الإعلام السعودي ضمن الأهداف والقيم الإسلامية والوطنية، التي يتوخاها الإعلام السعودي. وبهذا تكون وسائل الاتصال الجماهيري في المجتمع السعودي أداة للنقاش الهادف البناء الذي يسعى إلى تحقيق التفاعل الاجتماعي المؤثر بين أعضاء النسق الاجتماعي في هدوء تام، بعيداً عن الضوضاء والصخب والصراخ، وفي إطار أهداف وقيم الإسلام وكذلك القيم الوطنية التي يقوم عليها الإعلام السعودي.

وكما احترمت السياسة الإعلامية حقوق الأفراد والجماعات، فإن المادة السابعة والعشرين تربط الإعلام السعودي بالعالم الخارجي، من خلال الارتباط بوجهة إنسانية تقوم على احترام الإنسان وحقوقه، بأن يعيش في حرية على أرضه، ويستنكر كل اعتداء من أي نوع يقع على حقوق الشعوب والأفراد، ومكافحة الأطماع التوسعية، والوقوف بجانب الحق والعدل والسلام، ومناهضة الظلم والتفرقة العنصرية. والسياسة الإعلامية السعودية على هذا النحو سياسة إنسانية إسلامية، ذات صبغة عالمية، لا تنحاز للجنس أو اللون أو الثقافة أو العنصر أو الدين للإنسان، وإنما تسعى إلى احترامه وتأخذ بيده في حالة الاعتداء عليه، وتكافح كل

الأطماع التوسعية، وتقف إلى جوار الحق والعدل والسلام، وتناهض الظلم والتفرقة العنصرية. وفي تقديرنا أن كل هذه الجوانب من المزايا الرفيعة للسياسة الإعلامية للمملكة العربية السعودية تنسجم مع مبادئ القانون الدولي، وقرارات الأمم المتحدة، وقبل ذلك وبعده تأتي ترجمة أمينة ووافية لما جاء في تعاليم الإسلام وإنسانيته عقيدة وشريعة.

ولما كان المواطن السعودي محور الارتكاز في العملية الإعلامية، إذ له توجه وسائل الاتصال رسائلها المتعددة، فإن السياسة الإعلامية كما في المادة السابعة حرصت على أن تعمق عاطفة الولاء للوطن السعودي، أرضاً وكياناً في نفوس المواطنين، وتبصرهم بما أفاء الله عليه من طاقات وإمكانات، وتعرفهم بمآثره في الغابر والحاضر، وتحضهم على البذل له بسخاء، والإسهام الجاد في تقدمه وصونه، وتعمل على توعية المواطن بواجبه الأساسي في ذلك.

ولا شك أن هذه التربية الوطنية، التي تقدمها وسائل الإعلام السعودية من شأنها إعداد المواطن إعداداً سليماً، يكون من نتائجه الارتباط الكليّ بالوطن أرضاً وكياناً، فَتُعَلمُهُ الدفاع عن الوطن وصيانته من عبث العابثين، والحفاظ عليه، والتمسك به، وبذل النفس والمال من أجل حمايته من الأخطار، والمحافظة على المكاسب والمنجزات الحضارية التي تحققت على أرضه، من أجل الإنسان السعودي، وتنميته تنمية شاملة.

إن السياسة الإعلامية للمملكة العربية السعودية تعني أولاً وأخيراً الالتزام بالإسلام التزاماً كلياً، فمنه تبدأ وإليه تنتهي، وعلى ضوء تعاليمه السمحة استوحت مبادئها وأهدافها وغاياتها، واضعة في اعتبارها ظروف هذا العصر، وما يستجد على ساحاته من تفاعلات وقضايا، لابد أن يواكبها إعلام واع مدرك، يُبصِّر الناس بحقائق الأمور، ويسعى إلى تكوين رأي عام مستنير، ويمد المجتمع بقيم الحق والعدل والمحبة، ويشبع في نفوس أفراده حاجاتهم إلى العلم والمعرفة والثقافة من خلال الكلمة الهادفة والتوجيه السليم والمعلومة الصحيحة.

ولقد اهتمت حكومة المملكة العربية السعودية منذ عهد الملك عبدالعزيز ـ يرحمه الله ـ وحتى عهد الملك فهد بن عبدالعزيز ـ يحفظه الله ـ بالعلم والفكر وحرية البحث من خلال إنشاء المعاهد العلمية المختلفة، كما يرى في الجامعات السعودية ومراكز الأبحاث فيها، وإعداد البعثات الطلابية للدراسة وتحصيل العلم وأصول البحث العلمي والفكري، كما اهتمت المملكة العربية السعودية بالموهوبين من أبناء المملكة من خلال إنشاء هيئة الموهوبين التي تشرف عليها وزارة التربية والتعليم مثلها مثل برنامج الحاسب الآلي لصاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود وأبنائه الطلاب، وهناك عدد من مراكز الأبحاث الذي يدعمه صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود، كل هذه الحقائق تشير إلى تمسك المملكة العربية السعودية بمبادئ حرية الرأي والفكر من خلال تعاليم الإسلام ، وسنعرض في هذا الجزء من الموسوعة ثوابت حرية الرأي من خلال سمات الحركة العلمية والفكرية في المملكة العربية السعودية التي توضح مدى اهتمام الإسلام بالعلم والفكر والمعرفة مما سبق بيان، وفي ذلك دليل على تمسك المملكة العربية السعودية بالإسلام وجوانب اهتماماته العلمية والفكرية التي يتوافق معها كثير من المواثيق والصكوك الدولية الحقوقية التي صدرت عن هيئة الأمم المتحدة مثل الإعلان الخاص باستخدام التقدم العلمي والتقني للسلم وخير البشرية الذي أصدرته الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بقرارها رقم ٣٣٠٤ د ـ ٣٠ في ١٠/١١/١٩٧٥م.

لقد اتسمت المسيرة التنموية في المملكة العربية السعودية بالاعتدال والشمولية والاسترشاد بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف وقيمه السامية، لتحقيق التوازن بين التطور الحضاري والمادي، وبين المحافظة على المبادئ والقيم الدينية والأخلاقية، وتضمنت أهداف المملكة منذ خطة التنمية الأولى ثلاثة أبعاد مهمة، أولها البعد الاقتصادي، وثانيها البعد الاجتماعي، وثالثها البعد التنظيمي، فتناول البعد الاقتصادي توفير المناخ اللازم للنمو الاقتصادي وتنميته، وبناء التجهيزات الأساسية كإنشاء

الطرق وتشييد المباني والمرافق الخاصة بالتعليم والصحة والإسكان وتوفير الماء والكهرباء ثم إقامة المصانع، والاتجاه إلى الزراعة لتوفير الغذاء وتحقيق الاكتفاء الذاتي كهدف استراتيجي هام. وتناول البعد الاجتماعي رغبات المواطن السعودي وطموحاته، حيث تم التوسع في فرص التعليم بكافة مراحله، كما تم الاهتمام بالتدريب المهني والفني والتكنولوجي،الذي أصبح متاحاً في عدد كبير من المجالات لكسب المهارات والقدرات التي تساعد المواطن على مواجهة متطلبات الحياة.

أما البعد التنظيمي فقد تناول إدخال تغييرات أساسية في مجال الإدارة وإصدار اللوائح والأنظمة المرنة المواكبة لحركة التنمية، ومن ذلك تحديث نظام الحكم والمناطق ونظام مجلس الشورى الذي صدر عام ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م، إضافة إلى إنشاء مؤسسات جديدة تلبي المتطلبات الاقتصادية والاجتماعية مما أدى إلى توسيع الطاقات الاستيعابية للوظائف وتنشيط الحركة التجارية والمشروعات الصناعية والزراعية والبحثية والفكرية، مما ساهم في دعم الاقتصاد الوطني(٢١٧)، وتعتبر الخطة السادسة للتنمية للأعوام ١٤١٥ ـ ١٤٢٠هـ الموافق ١٩٩٥ ـ ٢٠٠٠م امتداداً للأهداف السابقة بعيدة المدى للمسيرة التنموية في المملكة العربية السعودية ومن أهم هذه الأهداف نذكر ما يلي:

١ ـ المحافظة على القيم الإسلامية وتطبيق شريعة الله وترسيخها ونشرها، والدفاع عنها في سبيل استقرار البلاد، إلى جانب تنشيط الحركة العلمية والثقافية والإعلامية والفكرية والبحثية.

٢ ـ تنمية القوى البشرية في مجالات العلوم والتقنية ورفع كفاءتها لتلبية احتياجات البلاد في القطاع الحكومي والقطاع الخاص،وتشجيع مساهمة القطاع الخاص في التنمية الاقتصادية والتقنية والعلمية.

٣ ـ تخفيف الاعتماد على النفط كمصدر رئيس لدخول البلاد.

٤ ـ تنمية الثروات المعدنية وتشجيع استكشافها واستثمارها، إضافة إلى تشجيع

الاستثمارات الأجنبية من خلال ما صدر من تنظيمات وتكوين مجالس وهيئات ومنها ما صدرخلال عام ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م إنشاء المجلس الأعلى للاقتصاد، والمجلس الأعلى للبترول، وهيئة الاستثمار الأجنبي، وهيئة السياحة.

٥ ـ تحقيق التكامل الاقتصادي والاجتماعي بين دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية وتقوية علاقة المملكة بالدول العربية والإسلامية والدول الصديقة في الجوانب الاقتصادية والعلمية والفكرية[٢١٨].

لعل كل هذه الحقائق تؤكد أهداف الحكومة السعودية لتحقيق الرفاه للإنسان السعودي وحفظ حقوقه المدنية والسياسية والعلمية والثقافية توافقاً مع بعض مضامين الصكوك الحقوقية الدولية مثل الإعلان الخاص بالتقدم والإنماء في الميدان الاجتماعي الذي أصدرته الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في ١٩٦٩/١٢/١م بالقرار ٢٥٤٢ د ـ ٢٤ والذي تضمنت ديباجته الإشارة إلى الاتفاقيات والعهود والمواثيق الدولية وفي مقدمتها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وفيها الكثير مما سعت المملكة العربية السعودية إلى تفعيلها مما أوجبته تعاليم الإسلام ابتداءً وقبل أن تصدر تلك المواثيق الحقوقية الدولية. يقول الملك فهد بن عبدالعزيز يحفظه الله: « والمملكة العربية السعودية لن تألو جهداً في سبيل خير جميع شعوب الأرض وسعادتها وفي مقدمة هذه الشعوب الأمة الإسلامية ، فهي القوة الثالثة في عالم تسوده القوة وتحكمه الهيمنة ، وعلينا أن نشكل بتعاوننا ما يمكننا من تكريس مبادئ السلام والتعاون بين شعوب الأرض ، وإن ما شهدتموه وتشاهدونه في المملكة العربية السعودية هو التجسيد الحي لتطبيق شريعة الله بكلّ ما تنطوي عليه من رحمة وعدالة وحرية وديمقراطية حقيقية ومن رخاء وأمن وطمأنينة. لقد تمكنت المملكة العربية السعودية من أن تستثمر ثرواتها في طريق الحق والعدالة والعلم والخير ، ونحمد الله على ما تحقق لنا، ونتطلع إلى أن نرى كل دول العالمين الإسلامي

والعربي في خير وفلاح، لأن ذلك من سعادتنا . إنا نؤكد رغبتنا المخلصة في أن تكون الأسرة الإسلامية متماسكة فهي الخلية الأولى التي بها يصلح الفرد وبصلاح الفرد تصلح الجماعة وبصلاحها يصلح المجتمع»[٢١٩]، وقد أفادت المملكة العربية السعودية من استخدام العلم والتقنية لصالح البشرية ومنهم شعوب الأمم الإسلامية التي تفد إلى الأراضي المقدسة فعملت على توسعة الحرمين الشريفين ورعاية الشعائر الإسلامية الأخرى مما سيأتي توضيحه في المبحث الثاني .

العمارة وتوسعة الحرمين الشريفين

لم تنفق المملكة العربية السعودية أموالها التي أفاء الله عليها لبناء مراصد التجسس، أو لبناء المفاعلات النووية، أو بناء معاهد الأبحاث التي تهتم بإنتاج أسلحة الدمار والتخريب ، ولم تنشيء مراكز إنتاج الأسلحة الجرثومية والبيولوجية ..الخ، مما سعت إليه بعض دول العالم مخالفة بذلك بل ومناقضة الصكوك الحقوقية الدولية مما جاء في ديباجة الإعلان الخاص بالتقدم والإنماء في الميدان الاجتماعي وفيه أن هيئة الأمم المتحدة تدرك بإلحاح إلى أن توجه الأبحاث العلمية والتقنية لأعمال السلم والتقدم الاجتماعي وعدم صرف الأموال الطائلة والجهود المفنية على التسلح وهدرها في التنازع والتدمير. إن المملكة العربية السعودية سعت إلى إنشاء مراكز العلم والبحث العلمي لصالح السلم والسلام ولصالح خير البشرية في حق شعب المملكة نفسها لتحقيق الرفاهية وكذلك في حق العمار والحجاج من المسلمين وفي حق الزوار والقادمين للعمل من مسلمين وغير مسلمين. فلم يكتف الملك عبد العزيز عند تأسيس المملكة وحدة دينية وسياسية بالبناء، والحفاظ عليها فقط، بل سعى إلى تطويرها وإصلاحها وتأصيلها في كافة المجالات حتى استطاع بفضل الله ـ عز وجل ـ أن يضع الأساس لنظام إسلامي شديد الثبات والاستقرار، يعالج نظام الحكم والإدارة في الدولة، وهكذا

واصلت مسيرة البناء طريقها إلى الارتقاء في عهود ملوك المملكة العربية السعودية، في رعاياة ضيوف الرحمن، والعناية بالحرمين الشريفين، والمشاعر المقدسة، لقد ترك الملك عبد العزيز ـ يرحمه الله ـ لأبنائه من بعده موروثاً مباركاً، نشأهم على الحفاظ عليه والعناية به، ودربهم على تحمل الأمانة وعلى السير بها قدماً فكانوا خير خلف لخير سلف.

وتوالى ملوك هذه البلاد الطيبة على أداء الرسالة، وتحمل الأمانة من بعده، فقام كل ملك في عهده بدوره كما تعلم من والده، مع الحرص على إثراء التجربة بكل جديد مفيد، حتى وصل الدور إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود ـ يحفظه الله ـ فاكتملت للوطن: «أسباب قوته، ومنعته، وازدهاره. جيش قوي، واقتصاد متين، وعمران شامخ، ونهضة تعليمية واسعة، وإنجازات علمية رائعة، وتقدم طبي هائل، وصحراء غدت مزروعة بالثمار والأشجار، وبحر محلى ينساب كالأنهار. ويقود خادم الحرمين الشريفين أكبر حركة بناء وتعمير، تشهدها أمة من الأمم في عالم اليوم، من أهمها وأبرزها مشروع الملك فهد لإعمار وتوسعة الحرمين الشريفين، بكم وكيف ليس لها مثيل عبر التاريخ[٢٢٠].

ولقد نجح قادة المملكة العربية السعودية، في تأصيل الأمن والسلام، داخل المملكة وخارجها، وتوفير الأسباب التي تؤدي إلى حفظ الأمن والسلام للمواطنين وحجاج بيت الله الحرام، وأن ذلك هدف أسمى للدولة، ترتكز فيه على تعاليم الشريعة الإسلامية الغراء، وما فيها من دعوة إلى مراعاة الحقوق الإسلامية والإنسانية، وحقوق الجوار وطيب الصلة مع الدولة المسلمة وغير المسلمة، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[٢٢١]، ولقد حقق قادة المملكة العربية السعودية أقوالهم، في خدمة الإسلام والمسلمين، وعمارة الحرمين الشريفين،

ورعاية الحجاج، بأفعال ظاهرة باهرة، إذ أن أقوال شهود الله في الأرض من جميع فئات المسلمين، وألوانهم، وأجناسهم إجماعاً متطابقاً، عن إنجازات دولة آل سعود ذلك أن المملكة العربية السعودية قامت بدورها الإسلامي والسياسي على الوجه المطلوب خصوصاً في توسعة الحرمين الشريفين ورعايتهما والعناية بالمشاعر المقدسة، والعناية بالحجاج في جوانب حياتهم المختلفة منذ بدء رحلة الحج من بلدانهم، وأثناء إقامتهم في المملكة العربية السعودية، حتى عودتهم فرحين مستبشرين بعد أداء فريضة الحج، كل ذلك جاء متوافقاً مع مستوى طموحات المسلمين، في أرجاء المعمورة ولدى الدولة مزيد من العطاء في المستقبل، إن شاء الله تعالى.

لقد برهن ملوك المملكة العربية السعودية على سعة كرمهم، والإنفاق مما أفاض الله عليهم من الخيرات بلا حدود للإتقاء إلى سمو حضاري معماري وفني في المنشآت المتعددة التي أقامتها لرعاية الحجاج، بدءاً من الحرمين الشريفين، فالمشاعر المقدسة، والمساجد المأثورة، والطرق، والجسور، والأنفاق، والمستشفيات، والمساكن وغيرها من المنشآت. مع توفير المواد الغذائية. وهذا الإنفاق سهل السبيل لكل حاج، ووفرت بذلك حكومة المملكة العربية السعودية لملايين المسلمين ما يملأ نفوسهم بالطمأنينة، وما يحقق لأبدانهم الراحة، ولقلوبهم الشبع الروحي، وهكذا يمكننا القول بما يلي :

١ ــ لئن كانت دول العالم تفخر بمعالمها السياحية، وآثارها المادية الدنيوية، بما فيها المنشآت العسكرية وما تحتويه من أسلحة الدمار والحروب، فإن المملكة العربية السعودية تفخر بمآثرها الدينية والدنيوية التي أعدت للأغراض السليمة في غذاء الروح والبدن وخدمة صالح البشرية ممثلاً في عمارة الحرمين الشريفين، ومساجد المشاعر، والمواقيت وغيرها داخل المملكة، وبناء بيوت الله والعناية بها في أنحاء المعمورة ابتغاء وجه الله والدار الآخرة.

٢ ــ لئن كانت دول العالم تفخر برعاية السياح والزوار وتحقيق مصالح الدنيا

فقط لهم ومنهم، فإن المملكة تفخر برعاية الحجاج لتحقيق مصالح الدين والدنيا لهم دون مقابل، ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾، وبذا يؤدي الحجاج الركن الخامس في أمن وسلامة بعيداً عن فوهات المدفعيات وسلطان العسكر والحروب خصوصاً حول المنشآت العسكرية ومباني أسلحة الدمار والفناء.

٣ ـ لئن كانت دول العالم تسهر على حراسة معابد الأديان الباطلة، والمتاحف والأصنام، فإن المملكة العربية السعودية ترعى شعائر الدين الخالص، وحرماته لصالح الإسلام والمسلمين، دون مقابل دنيوي أو مقابل سمعة أو شهرة أو نتائج تفضي إلى أسلحة الدمار وضياع حقوق الإنسان.

٤ ـ لئن أنفقت دول العالم جزءًا من دخلها القومي على بناء المسارح، ودور السينما والهياكل، ودور الأوبرا والنصب التذكارية وبناء منشآت صناعة الأسلحة المدمرة واختراع أجهزة التجسس والتلصص .. الخ، فإن المملكة العربية السعودية أنفقت الكثير من دخلها الوطني على عمارة الحرمين الشريفين، والمشاعر المقدسة، ومساجدها، وما يلزم من خدمات مساندة دون رسوم أو مكوس أو ضرائب.

٥ ـ لئن قامت كثير من دول العالم في شق الطرق، وبناء الجسور لترويج صناعة السياحة، وأخذ الضريبة على ذلك بل وبناء القواعد العسكرية وبناء الغواصات البحرية وصناعة الطائرات المقاتلة والقنابل ..الخ، فإن المملكة العربية السعودية، فتحت الأنفاق، وشقت الطرق، وبنت الجسور والمطارات والموانئ، والمنافذ، وقامت ببناء المستشفيات، والمساكن، وأنشأت وسائل المواصلات والاتصالات لتسهل للمسلمين والوصول إلى ديار الإسلام، لأداء فريضة الحج دون أجر أو مقابل وليستفيد منها غير المسلمين من المقيمين والزوار.

إن مظاهر التقدم التقني والفني الذي يشاهد في المملكة العربية السعودية إنما هو لتقوية العلاقات مع المسلمين وهو مفخرة الإسلام والمسلمين، والتوسعة الكبيرة للحرمين الشريفين التي تمت في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز

آل سعود ـ يحفظه الله ـ اقتفت خطى والده المؤسس الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود ـ يرحمه الله ـ إذ أنه عندما أصبحت الأماكن المقدسة تحت ولايته واستتب الأمن في البلاد وجه ـ يرحمه الله ـ نداء للأمة الإسلامية عام ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م قال فيه: «إننا نرحب ونبتهج، بقدوم وفود حجاج بيت الله الحرام، من كافة بلاد المسلمين في موسم هذه السنة، ونتكفل ـ بحول الله ـ بتأمين راحتهم، والمحافظة على حقوقهم، وتسهيل أمر سفرهم إلى مكة المكرمة من إحدى الموانئ التي ينزلون إليها، وهي: رابغ، أو الليث، أو القنفذة، وسنتخذ من التدابير في هذه المراكز جميع الوسائل التي تكفل تأمين راحة الحجاج إن شاء الله تعالى»[٢٢٢].

ولقد اهتم بعد ذلك الملك عبد العزيز ـ يرحمه الله ـ بعمارة الحرمين الشريفين وتوسعتهما ورعايتهما رعاية كاملة، وسار على نفس النهج أبناؤه من بعده حتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود ـ يحفظه الله ـ ، وقد وصف مفكرو الغرب وصفاً يشهد بالاهتمام والعناية التي أولتها المملكة العربية السعودي للأماكن المقدس وتوسعة الحرمين على مدار التاريخ منذ نشأة المملكة العربية السعودية على يد الملك عبدالعزيز ـ يرحمه الله ـ ، فقد تحدث الدكتور جيفري كينغ الأستاذ في معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن وهو صاحب كتاب : (المساجد التاريخية السعودية) في مقال بعنوان : «التوسيع التاريخي للحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة» كتب فيه ما يلي: «يقع الحرم المكي الشريف في مكة المكرمة في قلب العالم الإسلامي، إنها القبلة التي يتجه إليها جميع المسلمين أثناء صلاتهم، كما يؤدي دوراً رئيساً في فروض الحج والعمرة، ويهيمن على الحياة في مكة، كما يهيمن مسجد النبي محمد ﷺ على الحياة في المدينة المنورة، فقد تم تأسيسه في السنة الأولى من الهجرة الموافق ٦٢٢م. وقد كوَّن تصميمه بباحته والمنطقة المغطاة على الجهة الجنوبية ـ القبلة ـ مثالاً احتذت به جميع المساجد التي يتم بناؤها في العالم الإسلامي»، ويقول

جيفري كينغ: «وبينما وصل الحرمان الشريفان ذروتهما في الأيام الأخيرة تعتبر عملية التوسيع ذات جذور تاريخية تعود إلى بزوغ الإسلام ،فقد نتج الاتجاه إلى إيجاد المزيد من الأمكنة الفارغة في الحرمين الشريفين من جراء الارتفاع المستمر في عدد المصلين في جميع الفترات فقد ازداد عدد الحجاج المشاركين في فريضة الحج في السنين الأخيرة ازدياداً مضطرداً ليبلغ المليون، وأثناء موسم حج عام ١٩٩٣م زاد عددهم عن المليونين، وكانت التوسعات الأخيرة على درجة هائلة بحيث تجاري الأعداد المتزايدة التي ترتاد المسجدين»[٢٢٣]. وفي هذا الشأن يقول الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود ـ يحفظه الله ـ : «على هذه الأسس القويمة والدعائم الكريمة قامت المملكة العربية السعودية منذ أن أسسها الملك الراحل عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ـ يرحمه الله ـ وانطلاقاً من المسؤولية التي شرفها الله بها حكومة وشعباً بخدمة الحرمين الشريفين، ورعاية حجاج بيت الله العتيق، جندت المملكة كل طاقاتها المحدودة وإمكاناتها المتواضعة منذ نشأتها في القيام بهذا الواجب الإسلامي العظيم، معتمدة على الله، ثم على سواعد أبنائها دون كلل أو ملل، حتى أفاء الله علينا من نعمه، وفجر لنا كنوز الأرض بتدفق النفط، فضاعفنا الجهود، ورفعنا مستوى الأداء، وبذلنا العطاء، في سبيل تحسين وتطوير سبل معايشنا، بما يتواكب مع متطلبات العصر، وأنفقنا كلما وفقنا الله إليه لخدمة الحرمين الشريفين، والسهر على راحة الحجاج، والزوار والمعتمرين، تعبيراً عن شكرنا لله على نعمه وآلائه»[٢٢٤]. إن العناية بالحرمين الشريفين، وضيوف الرحمن، من أساسيات منهج الحكم في المملكة العربية السعودية، منذ تأسيسها، حيث نصت المادة الرابعة والعشرون في الباب الأول من النظام الأساسي للحكم على ما يلي: «تقوم الدولة بإعمار الحرمين الشريفين، وخدمتمها، وتوفر الأمن، والرعاية لقاصديهما، بما يمكن من أداء الحج والعمرة، والزيارة، بيسر وطمأنينة».

ولقد تمت توسعة الحرمين من قبل شركة سعودية ارتقت أعمالها بفن العمارة

واستخدام أدوات التقنية والتطور، حتى إن الحرمين الشريفين أصبحا يعكسان فن هندسة العمارة الإسلامية من منظورها الإسلامي بالفكر السعودي من أبناء المملكة مهندسين وفنيين ..الخ، ووظفت المملكة أدوات التقنية في إنشاء أكبر مجمع في العالم لطباعة كتاب الله الكريم في المدينة المنورة وهو مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بآلته المتطورة فنياً وتقنياً خدمة لكتاب الله الكريم، وترجمة معانيه إلى كثير من اللغات من قبل أبناء المملكة وطلاب العلم من دول العالم الإسلامي وبلدان الأقليات الإسلامية. كل ذلك تم بتلاقي الإرادة السياسية الشرعية لولاة الأمور والآراء الفكرية من أبناء الشعب في سبيل الارتقاء بواجب المملكة نحو الزوار والمعتمرين والحجاج وهذا هو الحال في جميع الأمور تتلاقى السياسة والعلم وحرية الرأي لتحقيق المصالح الكبرى للبلاد والعباد، أما مظاهر العمارة في المملكة العربية السعودية واقع مشاهد في كثير من مدن المملكة الرئيسية مكة المكرمة والمدينة المنورة والرياض وجدة والدمام والخبر . فهناك المؤسسات الحكومية المختلفة وأبنيتها الشامخة مثل مكتبة الحرم المكي الشريف ومبنى أمانة مدينة مكة المكرمة ومبنى الإمارة وكذلك الحال في مدينة الرسول ﷺ ، ويشاهد في الرياض عمارة إسلامية متميزة في ديوان رئاسة مجلس الوزراء ومبنى مجلس الشورى ومبنى إمارة الرياض فضلاً عن المنشآت الخاصة مثل مركز الفيصلية ومركز المملكة إضافة إلى كثير من مباني الفنادق الدولية الشامخة والمساكن الخاصة بأبناء الشعب الذي سعت الدولة لتشجيعهم في بناء مساكن حديثة توفر أجواء الراحة والسعادة والرفاه وتمويلهم بقروض مالية ميسرة من خلال صندوق التنمية العقارية . ولا ننسى أن نذكر مركز الملك عبدالعزيز التاريخي والمنشآت الحكومية من الجامعات والوزارات ومعارض الطيران والمطارات .. الخ. وهناك الكثير من المراجع التي تحدث عن العمارة وحركة العمران في المملكة العربية السعودية يمكن الرجوع إلى بعضها في ثبت المراجع في هذه الموسوعة والمزيد منها متوافر في المكتبات العلمية والتجارية.

٢ـ التعليم العالي و البحث العلمي والتقني

وللإفادة من التطورات التقنية ومواكبة الحضارة العصرية فقد اهتمت المملكة العربية السعودية بإدخال علوم التقنية المختلفة في جامعاتها بما يخص العلوم والملاحة البحرية، وعلوم الحاسبات، وهندسة الطرق، والطيران، وعلوم الفلك، والطب والرياضيات. فلا تكاد تخلو جامعة من الجامعات السعودية إلا وبها معهد متخصص في العلوم والتقنية، مثل مراكز البحوث الطبية بالمستشفيات الجامعية، مثل مراكز أبحاث الفلك والأرصاد بجامعة الملك سعود بالرياض، وكلية علوم الأرض، وكلية علوم البحار، وكلية الأرصاد والدراسات البيئية ومركز البحوث الزراعية ومركز البحوث الطبية بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة. وتضم جامعة الملك فهد للبترول والمعادن في الظهران العديد من الكليات التقنية منها كلية الإدارة الصناعية، وكلية هندسة الحاسب، ويتبع الجامعة معهد البحوث التطبيقية الذي يخدم القطاع الحكومي والأهلي في المجالات المتعلقة بالبترول والمعادن والجيولوجيا والدراسات الصناعية والاقتصادية. ويوجد في جامعة الملك فيصل بالأحساء كلية الطب البيطري والثروة الحيوانية وكذا كلية الزراعة والأغذية، إضافة إلى مراكز البحوث المتعلقة بدراسة العلوم البيطرية والزراعية. ولا تختلف جامعة الملك خالد في أبها عن شقيقتها في اهتماماتها التقنية والفنية كما يرى في كلية الطب ومركز الأبحاث الملحق بها. كل ذلك استند أساساً على اهتمامات ولاة الأمور أن يواكب الشعب السعودي مقتضيات الحياة العلمية والتعليمية والتقنية وتفعيلاً للمبادئ العامة في النظام الأساسي للحكم حيث تنص المادة التاسعة والعشرون على ما يلي : «ترعى الدولة العلوم والآداب والثقافة، وتعنى بتشجيع البحث العلمي وتصون التراث الإسلامي والعربي وتسهم في الحضارة العربية الإسلامية والإنسانية»، أما جامعات الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، وجامعة أم القرى في مكة المكرمة، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، تمثل البنية الأساسية

لسياسة المملكة العربية السعودية التي قامت عليها في مسيرتها السياسية منذ تأسيسها في عهد الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود - يرحمه الله - وحتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود - يحفظه الله - تلك البنية المتمثلة في تطبيق الشريعة الإسلامية إذ توجد بها مراكز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي لفقهاء المسلمين وعلمائهم، التي تعد النبراس المضيء لشقيقاتها الجامعات التطبيقية في تقديم الرأي العلمي الشرعي للأمور المستجدة في الطب والفلك والاقتصاد.. الخ[٢٢٥]. وإضافة إلى هذه الجامعات الثمانية فهناك كليات المعلمين التابعة لوزارة التربية والتعليم وهي متخصصة في تأهيل المدرسين الذين يعملون في قطاع التعليم العام جنباً إلى جنب مع زملائهم خريجي الجامعات السعودية في الكليات المسلكية إضافة إلى بعض الجامعات الأهلية مثل جامعة الأمير سلطان الأهلية في الرياض ، وكلية الباحة العلمية في الباحة .. الخ[٢٢٦].

ولقد اهتمت المملكة العربية السعودية بتعليم الفتاة في إطار مبادئ التعاليم الإسلامية السامية بعيداً عن الاختلاط، فقامت الرئاسة العامة لتعليم البنات (آنذاك والتي دمجت مع التربية والتعليم عام ١٤٢٣هـ) بافتتاح العديد من الكليات الجامعية لتأهيل المعلمات للتدريس في القطاع التعليمي النسائي العام، وكذا تأهيل المتفوقات لمواصلة الدراسات العليا لمرحلتي الماجستير والدكتوراه لسد الحاجة إلى عضوات هيئة التدريس في هذه الكليات في مختلف التخصصات النظرية والعلمية في الدراسات الإسلامية والتاريخية واللغة العربية وآدابها إضافة إلى العلوم التقنية والتطبيقية والرياضيات والفيزياء والأحياء والكيمياء والتغذية والنسيج والفنون الجميلة .. إلخ، وللإسهام في الحركة العلمية والفكرية للبلاد فالنساء شقائق الرجال[٢٢٧].

ولما تقتضيه مصلحة التطور التقني والعلمي من وجود فنيين ومساعدين فنيين للعلماء والباحثين والخبراء، فقد سعت المملكة العربية السعودية إلى إنشاء المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني، وهو أمر من لوازم و متطلبات التنمية وحاجة

البلاد للقدرات والأيدي العاملة المدربة في مختلف المجالات، فقد أولت الدولة اهتمامها بتلك المؤسسات ووفرت لها أحدث الأجهزة والمعدات، وأدت الجهود التي قامت بها الدولة ممثلة في المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني إلى إنشاء العديد من الكليات التقنية، والمعاهد الصناعية والزراعية والتجارية، ومراكز التدريب المهني والتقني[٢٢٨].

ولم تكتف المملكة العربية السعودية بما تحققه الجامعات السعودية في مجالات النمو والتطور التقني والفكري والبحثي فقد سعت إلى إنشاء هيئة متخصصة للعلوم والتنكولوجيا، فأنشأت عام ١٣٩٧هـ ـ١٩٧٧م مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية في مدينة الرياض، وتهدف إلى تطوير العلوم والتقنية ، وتنفيذ برامج البحوث العلمية التطبيقية والنظرية لخدمة التنمية في المملكة، ودعم برامج البحوث المشتركة بين المملكة والمؤسسات العلمية الدولية لمواكبة التطور العلمي العالمي، وتدريب الكفاءات السعودية في مختلف المجالات التقنية داخل المملكة وخارجها، ومساعدة القطاعات الخاصة في تأمين قاعدة معلومات متخصصة في مجال التقنيات الصناعية وغيرها. وتعكف مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية على إعداد خطة وطنية شاملة للعلوم والتقنية بعيدة المدى خلال الأعوام ١٤٢٠ ـ ١٤٤٠هـ الموافق ٢٠٠٠ ـ ٢٠٤٠م ، ويمثل ذلك أول جهد تخطيطي علمي كبير تشارك فيه نخبة من العلماء والأساتذة والخبراء السعوديين في شتى مجالات المعرفة للتعرف على إمكانات المملكة وقدراتها العلمية والتقنية، وتهدف تلك الخطة إلى :

١ ـ نشر الوعي العلمي والتقني بين المواطنين وإيجاد الجو الملائم الذي يشجع على تنمية العلوم والتقنية وحرية الرأي والفكر.

٢ ـ تنمية القوى العاملة في مجالات العلوم والتقنية بجميع مستوياتها وبما يمكنها من مساندة الأنشطة العلمية والتقنية واستيعاب وتطوير التقنية في المملكة.

٣ ـ بناء وتنمية القدرات الوطنية للبحث والتطوير والتنسيق بينها لتنسجم مع المتطلبات والاحتياجات الوطنية والعالمية للتنمية.

٤ ـ نقل واكتساب وتطويع التقنية وتطويرها محلياً، وستعمل استراتيجية الخطة على دمج التصورات المختلفة لاحتياجات العلوم والتقنية للمملكة ،وستكون أهداف وأولويات العلوم والتقنية ضمن نطاق الأهداف والأولويات الوطنية للتنمية، أي أن الخطة الشاملة تتكون من أربع خطط تفصيلية وتنفيذية مدة كل منها خمسة أعوام توضع ضمن إطار الخطط الخمسية الوطنية (السابعة، والثامنة، والتاسعة، والعاشرة) للتنمية في المملكة .

ولقد حققت مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية في إطار برامجها الطموحة لخدمة العلوم والتقنية العديد من الإنجازات، حيث قامت بإنشاء عشر محطات فرعية لرصد الزلازل في تبوك وجازان، كما تمكنت من إنشاء قاعدة معلومات إحصائية للغة العربية، وإجراء دراسات ميدانية لخطوط الضغط العالي لمحطات البث والهاتف النقال، وتشغيل محطة ضخ وتحلية مياه تعمل بالطاقة الكهروضوئية في منطقة سدوس، وتوليد الهيدروجين بالطاقة الشمسية، ويجري تنفيذ مشروع الأطلس الشمسي السعودي، وهو عبارة عن أدوات رصد أرضية للإشعاع الشمسي مكونة من اثني عشر محطة مختارة موزعة على مختلف مناطق المملكة ذات الطابع المناخي المتباين، كما تم بناء وتشغيل خمسة محطات لرصد الرياح في المملكة، وأنفقت المدينة أكثر من أربعمائة وستة وأربعين مليون ريال في إعداد خمسمائة وأربعة وخمسين بحثاً، بالإضافة إلى مساهمة المدينة في تطوير قمر صناعي لخدمة التنمية الوطنية، كما أنشأت محطة للبحث والإنقاذ استفاد منها الطيران المدني في حماية الأفراد والممتلكات وإغاثة السفن الجانحة المعرضة للخطر، كذلك ساهمت المدينة في حل كثير من المشكلات البيئية مثل تلوث البحر والهواء، والنفايات المشعة والمخلفات الصناعية، والكوارث الطبيعية، وصحة البيئة، هذا فضلاً عن قيامها بالإشراف على أعمال خدمة (الإنترنت) في المملكة، وتضم مدينة الملك عبدالعزيز

للعلوم والتقنية عدداً من معاهد البحوث والمراكز العلمية وهي:

١ ـ معهد بحوث الفلك والجيوفيزياء.

٢ ـ معهد البترول والصناعات البتروكيمائية.

٣ ـ معهد بحوث الإلكترونيات والحاسب الآلي.

٤ ـ معهد بحوث الطاقة.

٥ ـ المركز السعودي للاستشعار عن بعد.

وجرى التخطيط لإنشاء معهد بحوث الفضاء بهدف القيام بأبحاث الفضاء السلمية بصورة أشمل وأعمق، وملاحقة التطورات العلمية العالمية في المجالات الفضائية[٢٢٩]. ويُذكر للمملكة العربية السعودية اهتمامها بالفضاء ودعم الرحلة العلمية الفضائية التي شارك فيها صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود على متن مكوك الفضاء الأمريكي ديسكفري عام ١٩٩٢م.

والمملكة العربية السعودية بها كثير من مراكز البحوث الطبية ، مثل مركز الأبحاث الموجود بمستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض وجدة، وفي المستشفيات العسكرية للحرس الوطني ووزارة الدفاع ووزارة الداخلية، وتجري فيها الأبحاث المتعلقة بالأمراض التي توجد في بعض الدول العربية والصحراء والمناطق الاستوائية والمدارية وأمراض الأورام المختلفة، وتحديد وسائل علاجها ببعض المستحضرات الطبية التي تدرس من قبل أطباء سعوديين يعملون في كبريات مستشفيات المملكة مثل مستشفيات الحرس الوطني في الرياض وجدة، إذ قام الدكتور خالد أشقر أستاذ علم الجراحة في مستشفى الحرس الوطني بجدة وفريقه الطبي من السعوديين مثل الدكتور محمود غلمان كبير الأطباء الجراحين المقيمين في نفس المستشفى بإجراء العديد من عمليات استئصال الأورام السرطانية ومنها استئصال ورم سرطاني كبير من معدة مريض عمره ثلاثة وأربعين عاماً بعد إجراء أبحاث عديدة عن نوعية السرطان وطريقة استئصاله ووسيلة العلاج بعد العملية

التي تكللت بالنجاح ، وهذا الإنجاز أحد الإنجازات الطبية التي تمت في مستشفيات الحرس الوطني في المملكة[٢٣٠]. والذي تم في حرية تامة للأطباء وآرائهم الحرة دون تدخل أو رقابة . ويذكر أن المملكة العربية السعودية لديها علماء متخصصون في أبحاث ودراسة زراعة القلب في مستشفيات وزارة الدفاع والطيران أمثال الدكتور محمد الفقيه، والدكتور خالد الجبير في الرياض، والدكتور حسان رفة في جدة، وقد اشتهرت الدكتورة وفاء فقيه في مستشفيات مدينة جدة الحكومية والخاصة بعمليات نقل وزراعة الرحم، كما أن الدكتور عدنان نصر الله تركستاني خريج كلية الطب بجامعة الملك سعود عام ١٤٠٢هـ، والذي يعمل في مجمع الرياض الطبي ابتكر طريقة جديدة عن طريق الجراحة المجهرية وباستخدام إبر وخيوط دقيقة لا تراه العين ابتكر طريقة لعلاج العقم عند النساء[٢٣١]. وابتكر الدكتور طلال أحمد مرداد جهازاً لعلاج مرض الذكورة الإنجاب في مراكز أبحاث العلوم الطبية بمستشفى الملك فيصل التخصصي[٢٣٢].

ومستشفى الملك خالد التخصصي للعيون يتمتع بشهرة عالمية كبيرة في علاج أمراض العيون المختلفة من خلال الكثير من الأبحاث العلمية، وقد اشتهر من الأطباء الدكتور سامر إسلام، والدكتور طلال صديق فاضل[٢٣٣]. ومن مشاهير الفيزيائيين السعوديين الدكتور خضر محمد الشيباني الأستاذ بجامعة الملك سعود بالرياض الذي عرف بأبحاثه في علوم الفيزياء في المملكة العربية السعودية ودول مجلس التعاون لدول الخليج العربية[٢٣٤]. ولا يُنسى الدكتور إبراهيم عبد الحميد عالم عضو الفريق العلمي السعودي الذي شارك في اكتشاف القارة القطبية الجنوبية، ومدير برنامج البيئة بمعهد البحوث العلمية بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران[٢٣٥]. كل هذه السمات تدل على تحقيق حرية الرأي والحركة العلمية والفكرية في التعليم العالي في المملكة العربية السعودية، إذ لولا اهتمام ولاة الأمر بذلك انطلاقاً من أحكام الشريعة الإسلامية لكان هناك حجر شديد على الرأي والفكر، كما هو الحال في

بعض الأديان، وفي هذا تأكيد على تنامي الحركة العلمية والفكرية بحرية تامة في المملكة العربية السعودية إعمالاً لأحكام الإسلام وثوابت أحكامه وحضارته.

٣ ـ التقنية الصناعية والبترول

إضافة إلى تلك الجوانب التقنية والعلمية في المملكة العربية السعودية، يمكننا الحديث عن مظاهر التقدم الصناعي والتقني وهو يمثل جانب من الاهتمام بالعلم والفكر وحرية الرأي، فلقد كانت المملكة العربية السعودية تحلم بذلك اليوم الذي تدخل فيه عالم الصناعة والتصنيع، اليوم الذي تنتج فيه شيئاً أو تصنع فيه شيئاً أو تصدِّر شيئاً مصنعاً غير النفط الخام والتمور، والصناعات التقليدية البسيطة إلى أن حسمت دولة المؤسس الملك عبد العزيز وأبنائه الخيار نحو الصناعة والتصنيع ، فكانت خطط التنمية الست التي بدأت أولاها عام ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، ثم تتابعت على امتداد الثلاثين سنة الماضية، فكانت ثمارها إنشاء شركة سابك العملاقة في المدينتين الصناعيتين الجبيل، وينبع على شاطئ الخليج شرقاً والبحر الأحمر غرباً، إلى جانب عشرات المصانع المنتشرة في أنحاء المملكة، ولقد تم الحلم واتضحت نقلتنا الحضارية من مُصَدِّرين للنفط إلى منتجين ومصنعين له ولكثير من مشتقاته ولغيرها.

ومن مظاهر إهتمام المملكة بالصناعة إنشاء وزارة خاصة بالصناعة، هي وزارة الصناعة والكهرباء التي أصبحت في عام ١٤٢٤هـ وزارة التجارة والصناعة، لتتولى شؤون الصناعة في البلاد والإشراف عليها وتطويرها، وهذه الوزارة تسهم في تشجيع الأبحاث الصناعية التي يقوم بها المستثمرون، والمهتمون بالأبحاث الصناعية في الغرف التجارية السعودية والعلاقات البحثية الصناعية بين الغرف التجارية السعودية والغرف الإقليمية والدولية، ولقد تطورت الصناعة تطوراً ملحوظاً في المملكة العربية السعودية، فلقد كان عدد مصانع المملكة في عام ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م مائتين وأربعاً وتسعين مصنعاً، وأصبحت في عام ٢٠٠٣م تزيد عن ألفين وستمائة وواحداً وثمانين مصنعاً، وعمال مصانعنا الذين كانوا في

ذلك التاريخ لا يزيدون عن اثنى عشر ألف عامل، قد أصبحوا اليوم قرابة ربع مليون عامل من السعوديين، وكانت صادرات المملكة من غير النفط الخام في ذلك التاريخ (١,٢) مليون ومئتي ألف ريال. وأصبحت الآن (٢٣,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ثلاثة وعشرين بليون ريالاً، لقد أقامت المملكة في صحرائها خلال الثلاثين عاماً خمسة عشر مدينة صناعية غير الجبيل وينبع تشجيعاً للعمل الفكري والإنتاج الصناعي[٢٣٦]. إنها جانب من قصة الوطن وطموحه وسهر قياداته من الملك المؤسس عبد العزيز ـ طيب الله ثراه ـ إلى خادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين، وحكومتهما الرشيدة، إن التعرف على مؤشرات التطور الصناعي الذي عاشته المملكة من خلال عناصره الثلاثة الرئيسة يوضح مرافق الصناعة في المملكة العربية السعودية :

١ ـ عدد المصانع .

٢ ـ عدد العاملين فيها .

٣ ـ مقدار التمويل الذي تم صرفه على هذه المصانع في الفترة ما بين ١٣٩٠هـ ـ ١٤٢٣هـ ، ١٩٧٠م ـ ٢٠٠٢م

فمن الواضح أن هناك فوارق كبيرة في العناصر الثلاثة، فأرقام عام ١٣٩٠هـ توضح أن الصناعة خلال هذه الفترة كانت متواضعة جداً عند مقارنتها بأرقام عام ١٤٢٣هـ، ومما يؤكد ذلك أن عدد المصانع زاد تسع مرات عما كان عليه في عام ١٣٩٠هـ، أما عدد العمال فقد زاد ثمانية عشر مرة ونصف، بينما زاد رأس مال المصانع (٢١٥) مائتين وخمسة عشر مرة عما كان عليه في عام ١٣٩٠هـ. إن هذه الزيادات تؤكد دون شك مقدار التطور الكبير الذي حدث للصناعة بالمملكة، حيث أن هذه الزيادات ـ من المنظور العالمي ـ تعتبر زيادات خارقة تسابق الزمن، وتعكس الزيادة الكبيرة التي شهدها التمويل من الدولة لدعم الصناعات الضخمة الممثلة في أنواع الصناعات المختلفة، وأهمها صناعة البتروكيماويات.

وبالنظر إلى التوزيع الجغرافي للمجموعات الصناعية الأهم في المملكة قياساً

بإجمالي التمويل ، نلاحظ أن هناك اختلافاً واضحاً في توزيع نسب التمويل على المناطق الإدارية، ومثالاً على ذلك نجد أن ٨٦,٥٪ من إجمالي التمويل للصناعات الكيماوية والمنتجات البلاستيكية في عام ١٤١٨هـ تركز في منطقتين فقط هما المنطقة الشرقية ومنطقة المدينة المنورة بسبب وجود مدينتي الجبيل وينبع الصناعية، وتحظى المناطق الإدارية (الرياض، ومكة المكرمة ، والشرقية) بالنصيب الأكبر من استثمارات صناعة مواد البناء والخزف والصيني والزجاج، فقد بلغت نسبة هذه المناطق من إجمالي تمويل الصناعة المذكورة ٧٤,٣٥٪ في عام ١٤١٨هـ فضلاً عن وجود المواد الخام بهذه المناطق لقيام هذه الصناعة فإن وجود أهم وأكبر المراكز الحضرية فيها يزيد من الطلب على منتجات صناعة مواد البناء عامة.

وفي مجال صناعة المواد الغذائية والمشروبات فإن نمط التوزيع الجغرافي للتمويل لهذه الصناعة يسير على نفس النمط حيث تستحوذ كل من الرياض، ومكة المكرمة، والمنطقة الشرقية على أكثر من ٨٤٪ من إجمالي تمويل الصناعة المذكورة لعام ١٤١٨هـ. أما المناشط الصناعية الأخرى فنلاحظ بروزاً واضحاً في التركيز الجغرافي لهذه المناشط في مناطق محددة، فعلى سبيل المثال صناعة المنتجات المعدنية والماكينات والمعدات تستأثر كل من الرياض ومكة المكرمة والمنطقة الشرقية بـ٩٨,٧٪ من إجمالي التمويل لهذه الصناعة، أما الصناعات المعدنية الأساسية وصناعة الورق والطباعة والنشر فهي تتركز بشكل أساسي في كل من مكة المكرمة بما نسبته ٩٩,٦٪ ونسبة ٩٩٪ في المنطقة الشرقية على التوالي، وسنبين فيما يلي خصائص النهضة الصناعية والتقدم التقني والعلمي كما تمثله بعض القطاعات الصناعية في المملكة العربية السعودية خصوصاً الحكومية منها [٢٣٧]. يقول الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود يحفظه الله: « وكذلك الأمر في الجانب الزراعي والصناعي حيث بلغت المصانع أكثر من ألفين وأربعمائة مصنع ، حتى أن الإنسان يستغرب عندما يشاهد على التلفزيون أشياء كثيرة ويعرف أنها صناعة سعودية مائة

بالمائة وهذه نعمة كبيرة ... وإن المنشآت الصناعية ليست هي المهم سواء كانت حكومية أو أهلية لكن ما يلفت نظري أن أرى سواعد أبناء الوطن هي التي تدير هذه الأمور ، وهذا في نظري أهم شيء يجعل المواطن يعتز ويفخر»[٢٣٨].

أ ـ مصافي البترول

كانت صناعة البترول من أول الصناعات التي بدأت في المملكة العربية السعودية، تلك الصناعة التي عمل فيها السعوديون منذ اللحظة الأولى الذي اكتشف فيها البترول، فكانوا بادئ الأمر عمال حفر ومشرفي رقابة، ومع تطور الأيام أصبح الإنسان السعودي يشارك بفكره في الصناعة البترولية دراسة وتصميماً وتخطيطًا وبحثًا وبراعة وتنفيذًا. ويقف معهد البحوث العلمية بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن وكلية الإدارة الصناعية بنفس الجامعة وراء كثير من الأبحاث البترولية التي يقدمها السعوديون في هذا الجانب بحرية في البحث والتجربة والملاحظة والاستقراء وانفتاح في الرأي وحرية الفكر. وتعتبر مصافي البترول من الصناعات النفطية الهامة، و أحد أوجه النشاط الرئيسة لإيجاد صناعة بترولية متكاملة، وقد أُنْشِئَتْ أول مصفاة لتكرير البترول في المملكة في رأس تنورة، ثم مصفاة مدينة الخفجي، وثالثة في ميناء سعود لتلبية حاجة الأسواق المحلية المتزايدة، وأنشئ قبل ما يزيد عن (٣٠) ثلاثين عاماً أول مصفاة في مدينة جدة بهدف توفير وسد حاجات الاستهلاك المحلي، و بدأ إنتاجها عام ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م بطاقة إنتاجية مقدارها (١٢,٠٠٠) اثني عشر ألف برميل يومياً، ثم مصفاة الرياض والتي بدأ الإنتاج فيها عام ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م بطاقة مقدارها (٢٠,٠٠٠) عشرين ألف برميل يومياً، ثم مصفاة ينبع التي بدأت الإنتاج في المرحلة الأولى عام ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م بطاقة إنتاجية قدرها (١٧٠,٠٠٠) مائة وسبعون ألف برميل يومياً، وفي المرحلة الثانية عام ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م بطاقة إنتاجية مقدارها

(٢٥٠,٠٠٠) مئتان وخمسون ألف برميل يومياً، ويتم بيع وتوزيع إنتاج المصافي الثلاث السابقة للسوق المحلي فقط.

وهناك مصافي أقيمت بهدف التصدير فقط، وهي مصفاة ينبع التي بدأت الإنتاج عام ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م بطاقة إنتاجية تصميمية مقدارها (٢٥٠,٠٠٠) مئتان وخمسون ألف برميل يومياً، ومصفاة الجبيل التي بدأت الإنتاج عام ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م بطاقة تصميمية مقدارها (٢٥٠,٠٠٠) مئتان وخمسون ألف (٢٥٠,٠٠٠) برميل يومياً، ثم مصفاة بترول رابغ التي بدأت الإنتاج عام ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م بطاقة تصميمية قدرها (٣٢٥,٠٠٠) ثلاثمائة وخمسة وعشرون ألف برميل يومياً، وتقع هذه المصفاة في الترتيب الرابع بين أكبر المشروعات المماثلة في العالم. وفي مجال صناعة خلط زيوت التشحيم يوجد مصنع في جدة بدأ العمل فيه عام ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م ، وتبلغ طاقته الإنتاجية مليون برميل في العام، ومصنع بالرياض بدأ تشغيله عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م وتبلغ طاقته الإنتاجية (٥٠٠,٠٠٠) خمسمائة ألف برميل في العام، وآخر بالجبيل بدأ تشغيله عام ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م بطاقة إنتاجية مقدارها (١,٠٠٠,٠٠٠) مليون برميل من زيوت التشجيم و (٤٠٠٠) أربعة آلاف طن من الشحوم سنوياً، وفي عام ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م أنشئت مصفاة الزيت (لوبريف) في جدة لسد احتياجات السوق المحلية من الزيوت الأساسية وتصدير الفائض، وتبلغ طاقتها التصميمية (١,٢٠٠,٠٠٠) مليون ومئتي ألف برميل في العام[٢٣٩].

ب ـ الصناعات الأساسية والتحويلية

تعتبر الشركة السعودية للصناعات الأساسية سابك التي تأسست عام ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م الأداة الرئيسة لتحقيق طموحات التنمية الصناعية في المملكة العربية السعودية في تنويع القاعدة الإنتاجية، ومنذ انطلاقتها الأولى استطاعت أن تنمو بشكل مطرد وبرؤية نافذة وتصميم كبير، لتصبح أكبر منتج للبتروكيماويات

في المنطقة، وأحد المنتجين الرئيسين في العالم، ومن أكبر شركات تصدير الأسمدة في العالم، فالشركة تمثل حجر الزاوية لصناعة البتروكيمات في المملكة العربية السعودية منذ أن بدأت إنتاجها عام ١٤٠٣ـ ١٩٨٣م ، وقد اقتحمت منذ ذلك التاريخ الأسواق العالمية بقوة واضعة أمامها شعار «صناعات سعودية بمواصفات عالمية»، ليغدو حلم الماضي حقيقة في الحاضر، وشركة سابك تعتبر اليوم من أسرع الشركات الصناعية نمواً في العالم من خلال ستة عشر شركة صناعية تطبق أحدث التقنيات العالمية، ومعظم هذه الصناعات مشروعات مشتركة مع شركات عالمية رائدة حول العالم(٢٤٠).

ولإيمان شركة سابك بأهمية البحث العلمي فقد أنشئ مجمع سابك الصناعي للبحث والتطوير في مدينة الرياض وتقوم بتمويله الشركات الصناعية التابعة لسابك، و يعد هذا الصرح أكبر مركز للأبحاث الصناعية في منطقة الشرق الأوسط التي تتم بمستوى تقني رفيع يعمل فيه السعوديين ويشاركهم علماء وباحثون من مختلف دول العالم والجميع يتمتع بحيادية البحث العلمي الحر والرأي المنطلق. ولعل أكبر دليل على نجاح شركة سابك أن أصبحت المملكة العربية السعودية تعد المصدر الرئيسي في العالم لمادة مثيل ثلاثي يوثيل الأثير إم تي بي أي، حيث تنتج صناعتها حوالي ١٣٪ من إجمالي المعروض في العالم من هذه المادة، وهي تحتل المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة الأمريكية في هذا المجال.

ج ـ الصناعات البتروكيماوية

أنشأت الهيئة الملكية للجبيل وينبع المدينتين الصناعيتين في الجبيل وينبع بهدف قيام الصناعات الأساسية من المتنجات النفطية والبتروكيماوية والمعادن إضافة إلى الصناعات الثانوية المشتقة من هذه الصناعات والصناعات المساندة لها، وترجع مكانة هاتين المدينتين إلى ما تحتويان عليه من صناعات بتروكيماوية ومعدنية أساسية ذات استخدام مكثف لرأس المال وتقنيات إنتاج صناعي متقدم، وتعمل المدينتان الصناعيتان

في الجبيل وينبع حالياً كموقعين استراتيجيين للصناعات الهيدروكربونية والصناعات الأولية ذات الاستخدام المكثف للطاقة، مستغلة بذلك الثروات الطبيعية للمملكة أفضل استغلال. ويعتبر تنفيذ المدينتين الصناعيتين في كل من الجبيل وينبع مثالاً واضحاً للتخطيط السليم والرؤيا المستقبلية الثاقبة، بحيث أصبح للمملكة ذراعان صناعيان عالميان أحدهما : في المنطقة الشرقية حيث الموقع البحري على الخليج العربي بالقرب من الممرات البرية، والثاني: في المنطقة الغربية من المملكة حيث موقعها على البحر الأحمر وقربها من قناة السويس مما يسمح بتحويلها إلى مركز عالمي لتصدير المنتجات البترولية المكررة والبتروكيماوية خاصة للأسواق الأوروبية والأمريكية[٢٤١].

إن كل هذا يعكس تفهماً واضحاً للبعد الاستراتيجي في توزيع المناطق الصناعية مما يضمن استمرارية تدفق المنتجات البترولية المختلفة في وقت السلم والحرب، ولقد اضطلعت بمسؤولية التنفيذ لهاتين المدينتين الهيئة الملكية للجبيل وينبع التي أنشئت عام ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م من خلال التخطيط والبحث العلمي للفرد السعودي ودعم الحكومة لذلك، لتسير سفينة العلم والحركة العلمية والبحثية منطلقة في حرية تامة.

د ـ المدينة الصناعية بالجبيل

تم إنشاء التجهيزات الأساسية بمدينة الجبيل الصناعية على مساحة قدرها (١٠٣٠) ألف وثلاثون كيلو متر مربع، وأصبحت جاهزة مع نهاية عام ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م لإنشاء الصناعات الأساسية والمساندة والثانوية، وتم تشييد أحياء للعاملين (إداريين وفنيين وعمال .. الخ) مزودة بمرافق الإسكان والإعاشة والترفيه تستوعب (٢٨,٠٠٠) ثمانية وعشرون ألف عامل ، وشيد فيها حوالي (٧٠٠٠) سبعة آلاف وحدة سكنية للإداريين والمهندسين، ومن أجل تنمية وتطوير القوى البشرية السعودية تم تشييد كلية الجبيل الصناعية لإعداد العاملين على البحوث العلمية الصناعية.

هـ ـ مدينة ينبع الصناعية

اكتملت خطط إنشاء المدينة الصناعية في ينبع ومرافقها السكنية الحديثة على

مساحة (٨٠,٠٠٠) ثمانون ألف كيلو متر مربع، و تم تشييد أحياء للعاملين (إداريين وفنيين وعمال .. الخ) مزودة بمرافق الإسكان والإعاشة ووحدات سكنية للعائلات، وتشتمل المدينة على جميع الخدمات الضرورية اللازمة لاستمرار العمل وبتخطيط يحقق لمستخدمي المدينة الراحة والأمان.

وقد اشتملت هذه المدينة كما هو الحال في مدينة الجبيل الصناعية على كلية صناعية تتسع لألف متدرب بهدف تخريج الشباب السعودي المؤهل لتحمل المسؤولية في إدارة وتشغيل المدينة على أكمل وجه، كما تنقسم الصناعات فيها إلى ثلاثة أقسام الصناعات الأساسية، والثانوية، والمساندة[٢٤٢].

ولما كانت الحاجة لاستمرارية الأعمال الصناعية وتطوير التقنية تستلزم وجود الركائز الأساسية لدعمها وأهمها البحوث العلمية والتمويل فقد سعت المملكة العربية السعودية إلى إنشاء الدار السعودية للخدمات الاستشارية وصندوق التنمية الصناعية، فالدار السعودية للخدمات الاستشارية أنشأت عام ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م كأول بيت استشاري متخصص تؤسسه الدولة، وتعمل هذه الدار على أسس تجارية كأي مؤسسة استشارية خاصة، والهدف الأساس من إنشاء الدار هو تقديم الخدمات الاستشارية للهيئات الحكومية والخاصة ورجال الأعمال والصناعة في مختلف المجالات، وذلك بعد أن تم إلغاء مركز الأبحاث والتنمية الصناعية وإحلال الدار محله، وتهدف الدار إلى تحقيق عدد من الأهداف منها :

أ ـ تنمية وتطوير العمل الاستشاري الوطني بما يتماشى ومتطلبات الأجهزة الحكومية ومؤسسات القطاع الخاص من الخدمات الاستشارية والبحثية.

ب ـ تكوين قاعدة أساسية من القدرات الاستشارية الوطنية في كافة المجالات وتهيئة الإمكانيات اللازمة لتنميتها وتطوير كفاءتها حسب الأساليب التكنولوجية لتكوين البديل الكفء للعامل الاستشاري الأجنبي[٢٤٣].

أما صندوق التنمية الصناعية فقد أنشئ عام ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م، كجهاز مالي مرتبط بوزارة المالية والاقتصاد الوطني لدعم تنمية القطاع الصناعي الأهلي

بالمملكة، ولقد لعب الصندوق دوراً أساسياً في توسيع قاعدة المنتجات المصنعة محلياً بتقديم القروض الميسرة متوسطة الأجل بالإضافة إلى الخدمات الاستشارية اللازمة في المجالات الإدارية والفنية والتسويقية والمالية. وقد بدأ الصندوق نشاطه الإقراضي برأس مال مبدئي قدره خمسمائة مليون ريال ، ويحق للمستثمرين الحاصلين على تراخيص صناعية للحصول على قرض تصل نسبته إلى ٥٠٪ من إجمالي المشروع والحد الأقصى لفترة السداد هو خمسة عشر عاماً. واستمر الصندوق في تمويل المشروعات الصناعية عاماً بعد عام حتى بلغ مجموع القروض خلال عام ١٤١٦هـ - ١٤١٧هـ مليار واثنين مليون وثمانمائة ألف مليون ريال، بلغ نصيب قطاع المواد الغذائية (٣٩٧,٢) ثلاثمائة وسبع وتسعون مليون ومئتي ألف ريال، يليه قطاع الأسمنت بحوالي مائة وسبعة وثمانون مليون وتسعمائة ألف مليون ريال ثم قطاع صناعة المنسوجات بمبلغ مائة وتسعة وعشرون مليون وثلاثمائة ألف ريال، وبذلك استحوذت هذه القطاعات الصناعية الثلاثة على ما نسبته ٣٥,٧٪ من إجمالي قيمة القروض المنصرفة.

وقد بلغ الإجمالي التراكمي للقروض الصناعية التي صرفها الصندوق منذ إنشائه خلال عامي ١٤١٦هـ ـ ١٤١٧هـ ما يقارب من واحد وعشرين ونصف مليار ريال، و استحوذ قطاع صناعة الأسمنت على نسبة ٢٠,٧٪ من إجمالي القروض المنصرفة ، يليه قطاع صناعة المنتجات الكيماوية بنسبة ١٧٪ ، ثم قطاع صناعة المنتجات المعدنية بنسبة ١٢٪ ، وبذلك استحوذت هذه القطاعات الثلاثة على ما نسبته ٤٩٪ من الإجمالي التراكمي للقروض المنصرفة[٢٤٤].

هذه جملة لملامح ومظاهر التقدم العلمي والتقني في المملكة العربية السعودية كان من المناسب إبرازها في هذه المناسبة، وإظهار الحقائق والوقائع الموجودة في بلاد الدولة والدعوة المملكة العربية السعودية ، محط أنظار المسلمين ومهوى أفئدتهم فيها الحرمان الشريفان مهبط الوحي ومثوى الرسول الخاتم الرؤوف الرحيم

ﷺ وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليمًا كثيراً. إن هذه الملامح تظهر اهتمام المملكة العربية السعودية بتحرير الفكر والرأي والأعمال العلمية والبحثية من أي قيود استناداً إلى أحكام الشريعة الإسلامية.

والأمة العربية والاسلامية تزخر بثروة علمية كبيرة من أبناءها ذكرت على سبيل المثال بعضاً منهم في المملكة العربية السعودية، ونحن عندما ذكرنا أسماء المتميزين من العلماء في المملكة العربية السعودية فإنه لا بد أن نشير إلى غيرهم في بلدان العالم الإسلامي إذ لا يخفى على أحد أن أحفاد علماء المسلمين الأوائل في العصور اللاحقة الذين لم يتوقفوا عن الإسهام في إثراء الحضارة الإسلامية وحضارات الأمم بالفكر والابتكار والإبداع لا زالوا يتكاثرون، ومن أبرز الشواهد على ذلك ما نراه في عالمنا اليوم من وجود أعداد كبيرة من أبناء المسلمين يعملون في دول غربية وشرقية غير مسلمة في مؤسسات حكومية وغير حكومية في جامعات أمريكا وأوروبا واليابان والصين وروسيا، يعملون في مجالات الطب واشتهر منهم من يقوم بعمليات جراحة القلب المفتوح، ومنهم من يعمل في مجال الحاسبات ولهم برامج حاسوبية متميزة، ومنهم من يعمل في مجال الطيران والملاحة البحرية ونذكر على سبيل المثال أبناء جمهورية مصر العربية أمثال الدكتور فاروق الباز، والدكتور أحمد زويل، والدكتور مصطفى السيد، وهم معروفون بإنجازاتهم العلمية وحصولهم على جوائز دولية مثل جائزة نوبل تلك الجائزة التي حظي بها العالم الباكستاني أحمد عبد السلام، وقد استفادت منهم الدول غير الإسلامية ومن قدراتهم العلمية والفكرية والبحثية فقد قدمت لهم تلك الدول الإغراءات الكثيرة تبدأ بمنحهم مرتبات ومكافآت ومزايا مالية مرتفعة ومتعددة ومتنوعة، ثم تغريهم بمنحهم جنسية تلك البلاد، والإنفاق على تعليم أبنائهم ورعايتهم، وتقديم تسهيلات كثيرة في التملك وحرية التصرف المالي والاجتماعي.

وتأسيساً على ما سبق من ضرورة تكوين الأمة الإسلامية لكيان سياسي واقتصادي

وعلمي لها لمواجهة العولمة أو النظام الدولي الجديد، فهذا يستدعي أن تعمل أمة الإسلام على استقطاب علماءها ومفكريها ودعايتهم حقاً وصدقاً وعدلاً. كما أن الواجب على الأمة الإسلامية أن تقتدي بهدي النبي ﷺ بأفعاله وأقواله وبما بعث به من رسالة خاتمة للعالمين كافة في النهوض بالعالم الإسلامي نحو حضارة سامية ترعى الإنسان وحقوقه، وتدعو إلى الإسلام و السلم والعدل والعلم، والحق والتفكر وحرية الرأي بضوابطها الشرعية وبيان عالمية الإسلام للإنسان وليس عولمة حياة الناس وصهرهم في قالب واحد دون اعتراف بالتنوع والتعددية، وجعلهم بعيدين عن خصوصياتهم في أديانهم وثقافاتهم وحضاراتهم ولغاتهم ومصالحهم، وتستطيع الأمة الإسلامية أن تسهم في الحضارة الإنسانية من خلال هذه المقترحات :

١ ـ توحيد الجهود الحضارية والثقافية والعلمية للأمة الإسلامية من خلال مراكز معلومات تنشر في بلاد المسلمين خلال شبكة الإنترنت ليطلع العلماء والباحثون والمفكرون على المناشط العلمية للشعوب الإسلامية وإطلاق حرية الرأي والفكر والتفكير بالضوابط الشرعية.

٢ ـ إحياء التراث الإسلامي لأدبيات البحث العلمي التي كتبها المسلمون السابقون، تاريخه، ونشأته، وشروطه، ووسائله، وأهدافه، وأخلاقياته، وآدابه وأبحاثه وابتكاراته ..الخ.

٣ ـ السعي إلى توحيد مجهودات المسلمين في البحوث الفقهية والعلمية والتقنية بمستجدات العصر، وتفادي أوجه الخلاف والاختلاف في مظاهرها غير الإيجابية، ووضع الضوابط والأسس المنظمة للإفادة من الجهود والمناشط التقنية بما يتوافق وضوابط الإسلام وحاجة الأمة الإسلامية، وتدريب أبناء المسلمين على تطورات التقنية في الداخل والخارج.

٤ ـ الإفادة من القدرات المسلمة المغتربة المتخصصة في المجالات التقنية وتوطينها في العالم الإسلامي مع خبراتها ومؤهلاتها وتوفير ضروريات معاشهم بأكثر مما هو متاح لهم في غير البلدان الإسلامية.

٥ ـ وضع الضوابط اللازمة لاحترام العلم والعلماء ومعرفة حرمة المال والوقت وحرية الرأي في ظل ضوابط الشريعة الإسلامية والعمل بين المسلمين كالجسد الواحد.

٦ـ مساندة الدول الإسلامية بعضها البعض في الإفادة من الاتفاقيات الدولية الخاصة بالعلوم والتقنية ، وطرق الإفادة منها لمصلحة الإسلام والمسلمين. وتوظيف المؤسسات الإسلامية والعربية لخدمة ذلك مثل منظمة المؤتمر الإسلامي والمؤسسات المتفرعة عنها، ورابطة العالم الإسلامي وهيئة الإعجاز العلمي فيها، والمنظمة العربية للعلوم والثقافة، ووزارات الشؤون الإسلامية والأوقاف ووزارات التربية والتعليم ومراكز البحوث العلمية والتقنية ...إلخ.

٧ـ تحديث نظم التعليم في بلدان العالم الإسلامي التي عفى عليها الزمن، والتي لم تعد فيها مناهج ومقررات العلوم والتقنية تواكب حياة التقدم العلمي والتقني، لأنها تقوم على نمطية واحدة منذ إقرارها ربما قبل عشرات السنين، لذا فمن المناسب إعادة النظر في مقررات ومناهج التعليم وتشجيع الناشئة مع بدايات المراحل التعليمية الأولى على الاهتمام بالعلوم والتقنية مرتبطاً بأحكام الشريعة الإسلامية وآداب العلم والعلماء وما كان عليه سلف الأمة من فضل وخير وحق في استخدام العلم لمصلحة الإنسان وليس لدماره.

هذه جملة من المقترحات التي يمكن الأخذ بها لتقديم مشروع حضاري لنهضة العالم الإسلامي في ظل الكتاب والسنة، بعيداً عن الحزبية والطائفية، في ظل الشورى والتشاور، في ظل التعاون على البر والتقوى والخير، وتحقيق عقيدة التوحيد الخالص رضاً بالله تعالى رباً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً (عقيدة وشريعة) وتوظيف العلم والتقنية للسلام وخدمة صالح البشرية ورفاهها.

وختاماً إذا كان التعبير وإبداء الرأي من حقوق الإنسان وحرياته الأساسية فكيف يمكن أن يكون ذلك في نفس الوقت من نواقض حقوق الإنسان؟

١ ـ تكون حرية الرأي والتعبير أداة لانتهاك حقوق الإنسان إذا ما أسيء استخدام

كلمة حرية دون قيودة أو ضوابط، مما يجعل الإنسان يعتدي ويطغى بقوله على إنسان آخر بتلفيق الأخبار وروايتها وإشاعتها زوراً وبهتاناً، والعمل على ترويج الكذب والزور مما قد ينشأ عنه مشكلات إنسانية قد تفضي إلى الحروب، فحرية الرأي والتعبير يجب أن تقيد بالحق والعدل اللذان هما قواعد حقوقية أساسية في المجتمع الإنساني، ويكون الإنسان مقدراً لأقواله وكلامه وإلا كانت حرية الرأي ناقضاً من نواقض حقوق الإنسان والمبادئ التي جاءت في مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

٢ ـ إن كبت حرية الرأي في التصريح بالحقيقة والشهادة بالحق وكتمانه مما تسعى إليه وسائل الإعلام في تعمية الحقائق وإخفاء الوقائع هو غمط لحقوق الشرفاء الذين يأبون الإهانة الفكرية والإفصاح عن الرأي، وهو غمط لحقوق الناس الذين لا يستطيعون البوح بما لحقهم من ظلم وهوان، وهذا منهج يفضي بالضرورة إلى ضياع الحقوق ويكون مناقضاً للإعلان العالمي لحقوق الإنسان ومبادئه.

حسبنا ما ذكرنا من إيجاز عن ما قد يكون من نواقض لحقوق الإنسان عندما يساء استخدام مبدأ حرية الرأي والتعبير على ما ذكرنا في السببين السابقين فضلاً عما أوردناه من مفاهيم إسلامية تحفظ الحقوق الإنسانية في هذا المبحث وبالله التوفيق.